الإنسان والمدينة للأبحاث الإنسانية والاجتماعية

ذاكرة غير مكتملة
رصد التحولات الاجتماعية لمدينة بورسعيد منذ الخمسينات

محمد السادات

برنامج باحثي المدينة

City Scholars

النسخة الثانية

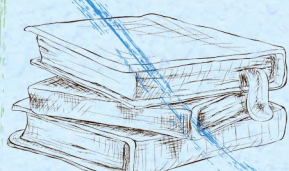

ذاكرة غير مكتملة
رصد التحولات الاجتماعية لمدينة بورسعيد منذ الخمسينات

محمد السادات

برنامج باحثي المدينة- النسخة الثانية 2024

صادر عن الإنسان والمدينة للأبحاث الإنسانية والاجتماعية2025
الحقوق محفوظة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نسب المصنف غير تجاري
-منع الاشتقاق / الإصدارة 4,0

مقدمة

"أكثر محاولات الإنسان اتساقًا، وبشكل عام أكثرها نجاحًا في إعادة تشكيل العالم الذي يعيش فيه بما يتفق بدرجة أكبر مع رغبات قلبه. لكن إذا كانت المدينة هي العالم الذي خلقه الإنسان، فهي بالتالي العالم الذي يتعين عليه العيش فيه. فالإنسان بشكل غير مباشر، ودون إدراك واضح بطبيعة مهمته، قد أعاد أثناء خلقه للمدينة تشكيل نفسه."[1]

منذ نشأة مدينة بورسعيد عام 1859 واستقطاب العمالة المأجورة أو استخدام السخرة لحفر قناة السويس، تشكلت ذاكرة جماعية. بدأت بذور تلك الذاكرة في شكلها الأولي في روح العمالة الجديدة المهاجرة من مدن الجنوب والتي تمثلت في فلاحين قرارين جرى أسرهم للعمل أو فلاحين فارين من التسجيل في الديوان باحثين عن مسارات حياة جديدة بعيدًا عن سوط الوالي. ولكن لتأسيس مدينة جديدة، هنالك حاجة لعوامل اجتماعية وشروط بيئية وخلق علاقة تكاملية جديدة بين البشر وطبيعة المكان.

هنالك اختلاف بين نهج الدولة في تأسيس المدينة وبين نهج المجتمع المديني المُؤسس للمدينة. قرار الدولة في تأسيس مدن بورسعيد والإسماعيلية وبور توفيق كان لغرض تكوين منطقة اقتصادية جديدة عبر حفر قناة ملاحية عالمية تحقق لمصر سيادة أكبر على المنطقة والتي لم تكن لتباشر في حفر القناة لولا ضلوعها في السيطرة على المنطقة المتمثلة في غزوات محمد علي وهيمنته على الشام والسودان وتأمينه للتجارة وتوسع علاقاته مع الدول الإمبريالية الكبرى. أما نهج الدولة العلوية كان إنشاء مدينة تعمل كميناء ومركز للوكالات الأجنبية المسؤولة عن الملاحة من كل دول العالم في بورسعيد. هذا النهج الذي جعل النشأة الأولى للمدينة نشأة متعددة الجنسيات (كوزموبوليتانية) متمثلة في المعمار الفرنسي والثقافة الأوروبية الطاغية على روح المدينة. إلا أن المدينة لم تكن تمامًا مستعمرة أوروبية جديدة، إنما حملت جنينًا من مجتمع مديني كان في مرحلة المخاض والذي نشأ من اختلاط الثقافات المحلية في المنطقة ممثلة في العمال المصريين النازحين للمدينة الجديدة للعمل في الميناء حمالين أو حفارين في القناة وكل الأعمال الأخرى التي احتاجت إلى ما ندعوه الفائض البشري لسد الحاجة في تلك المهام.

يسعى هذا البحث إلى مناقشة التحولات في مدينة بورسعيد وبالأخص التحولات الاجتماعية السريعة والمتغيرة التي تسببت في تغير المكونات الاجتماعية للمدينة والتمييز بين ذاكرتين؛ الذاكرة الأولى وهي ذاكرة المكان نفسه على مر التاريخ بالأحداث التاريخية التي طرأت عليها، والذاكرة الثانية هي الذاكرة الجيلية والتي تعرضت لتشوهات مصدرها تلك التحولات التي طرأت على بيئة المكان وتشويهها وبالتالي أدت إلى تشوهها.

اعتمدت في ذاكرة المكان على الكتابات المُوثّقة عن تاريخ المدينة والنشأة. وتلك المصادر اختلفت كثيرًا في تفسير النشأة ما بين النظر للمدينة على أنها مشروع رأسمالي أسسه الاستعمار أو أنها مشروع مدينة حديثة تنقل إلى مصر عناصر الحداثة من معدات وأنظمة. أما بالنسبة للذاكرة الجيلية فالاعتماد على الذاكرة الشفاهية هو المصدر الأوفر للتفكير في موضوع البحث. فالنقل الشفاهي

1- ديفيد هارفي، ترجمة لبنى صابر، **مدن متمردة: من الحق في المدينة إلى الثورة الخضراء**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص29، 2017.

أصيل غير مضطرب اضطراب التأريخ المدرك؛ بل إن ذاكرة مواطني المدينة هي الاضطراب الحي لتغيرات المكان والتعبير الحيوي عن جغرافيته. «إن الذاكرة هي مادة التاريخ الأولية، وهي تمثل بشكلها الذهني أو الشفوي أو الكتابي، الينبوع الذي ينهل منه المؤرخون، ولأن عملها في الأغلب غير واع، فإنها تتعرض أكثر من غيرها لخطر الخضوع لتلاعبات الزمن والمجتمعات التي تفكر في الاختصاص التاريخي بذاته، ويأتي هذا الاختصاص فعلاً ليغذي الذاكرة وينضوي في العملية الجدلية الكبرى للذاكرة والنسيان اللذين يعيشهما الأفراد والمجتمعات»[2].

النشأة

تكوين المدينة كان عمادة القروض الدولية التي اقترضها الخديوي إسماعيل لصناعة منطقة رأس مالها هو الوكالات الأجنبية التي فرضت نفسها كملاك للمدينة. «التزمت مصر أولًا، بتوفير 20 ألفا من الفلاحين الذي يعملون بالسخرة على مدى سنوات وثانيا بشراء أسهم بقيمة 70 مليون مارك أي ما يعادل أربعين في المئة من إجمالي رأس مال شركة قناة السويس، وذلك من أجل العمل الخيري المتمثل في حفر القناة التي ستسمح بمرور التجارة الأوروبية الآسيوية عبر مصر التي ستتضرر تجارتها بسبب ذلك بشدة. وهذه الملايين السبعين كانت أساساً للدين الحكومي الهائل لمصر والذي سيقود بعد عشرين عاما إلى الاحتلال العسكري الإنجليزي لمصر»[3]. وكانت بورسعيد حينها مكونة من مناطق بسيطة ضئيلة الحجم عبارة عن بيوت للعمال الأجانب والمهندسين الفرنسيين المسيرين لقناة السويس ومباني الوكالات التجارية الأجنبية على خط القناة، والبيوت الخشبية المتفرقة للمواطنين المصريين والذين كانت لهم عدد من الأعمال المتفرقة مثل توريد الماء الصالح للشرب والصيد. هذه الطبقة الجديدة سترث مع مراحل تطورها عبء التحرر الوطني المُثقل بالديون ومنافسة الوجود الاستعماري على المدينة التي تشكلت كأزمة سياسية دولية يطمع في تملكها كل أباطرة التجارة الاستعمارية: الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا.

كل تلك العناصر كانت من بوادر انتقال رأس مال جديد للمدينة الناشئة، وكل رأس مال بحاجة لإنتاج أسواقه وفائضه وعماله. لكن لم تكن العمالة في تلك المنطقة مصرية خالصة حتى تأميم قناة السويس والتي تعد مرحلة تغيير جذري حين تكونت الطبقة العاملة المصرية في مدينة بورسعيد ونزوح العمالة الأجنبية عن المدينة، وبالتالي تشكلت هرمية طبقية جديدة ومعها قواعدها المدينية الجديدة. أما بالنسبة للعمران فقد انتشرت ملامح عمرانية مختلفة عن تلك التي كانت تتبع النهج الأوروبي في البيوت المُزينة بالتماثيل الرخامية أو لوحات العذراء وتماثيل اليسوع على مداخل البيوت، لتوجد ملامح جديدة متمثلة في البيوت الخشبية المنتشرة على طول شارع الثلاثيني في حي العرب، أحد أقدم المناطق في المدينة. دائمًا ما كان هذا التناقض الصارخ بين نموذجين من المعمار كلًا منهما يناقض الآخر من حيث أصالته وتجذره. فتبع افتتاح قناة السويس بداية الاستعمار الإنجليزي في بناء موانئه الداعمة لسيطرته على البحر الأحمر- متمثلة في عدن والصومال- وامتداد تلك المرحلة منذ عام 1869 حتى الحرب العالمية الأولى ثم الثانية حين تحولت تلك الموانئ إلى مواقع عسكرية تابعة للحلفاء. تمثل هذا التناقض في المعمار بين الذات التي خلقها الوافدين الجدد في

2- جاك لوغوف، ترجمة جمال شحيد، **التاريخ والذاكرة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص10، 2017.

3- روزا لوكسمبورغ، ترجمة أحمد فاروق، **عن الثورة والحزب وأفول الرأسمالية: نصوص مختارة**، مؤسسة روزا لوكسمبورغ، ص91، 2016

معمارهم بغرض التمدن وبدء حياة جديدة في البيوت الخشبية الأقرب لشكل الدوار في الصعيد بمشربياتها وأدوارها التي تتراوح بين ثلاث وأربعة أدوار لتحتوي سلالة عائلة تستوطن بورسعيد بعد النزوح، وبين مجمع سيمون أرزت التجاري المواجه للقناة مباشرةً أو البيت الإيطالي الذي تم بناؤه بتوصية من موسوليني لطموحه المستقبلي في التمركز في المنطقة.

مع نشأة الطبقة العاملة الجديدة المتأثرة بمجانية التعليم وحاجة المدينة إلى فائض بشري يشغل المهام التي أصبحت فارغة نتيجة رحيل الإنجليز، زاد معدل المهاجرين إلى المدينة من المدن الريفية والقرى المتمركزة على جانبي قناة السويس. فتكونت بعض المناطق الجديدة وبدأ تدخل الدولة لحل مشكلة الإسكان ويبدأ أول مشروع إسكان اجتماعي في بناء المنطقة الأولى والثانية والثالثة وحتى السابعة بعد حرب 1956 والتي تعد أولى محاولات تعمير الأحراش في حي المناخ، ثم منطقة ناصر السكنية والتي تعد مسقط رأس معظم أبناء جيل الستينات من أبناء بورسعيد. تلك الهجرات كانت واضحة تمامًا في وقت الحرب 1967-1973 والتي تسببت في نزوح أهالي بورسعيد إلى محافظة الدقهلية ورأس البر في دمياط وخصوصًا مدينة المنزلة. وقد مثّلت بحيرة المنزلة عاملًا طبيعيًا رئيسيًا في تشكيل المدينة حيث كانت العنصر الطبيعي المؤسس للمقاومة؛ إذ كانت معبرًا لخروج ودخول الفدائيين وتهريب السلاح.

إن دور الطبيعة والبيئة في تشكيل بورسعيد لهو دور مركزي. فبحيرة المنزلة- والتي تعد أكبر بحيرة مالحة في أفريقيا- شكّلت مصدرًا للثروة السمكية ومعبرًا تجاريًا للمدينة من عصورها الأولى حين تزعمت مدينة التنيس التجارة في الجانب الشرقي لمصر. بل نزيد على ذلك أن المسطحات المائية في مدينة بورسعيد كانت وعلى مر العصور متصلة اتصالاً ماديًا وروحيًا بحركات المقاومة التي كانت ممثلة في مقاومة حسن طوبار زعيم الصيادين والتجار في المطرية ضد الحملة الفرنسية إلى المقاومة في حرب 1956. وانتقلت تلك الروح مع الماء والمقاومة متمثلة في أشعار سيد حجاب (1940-2017)، أحد أبناء المطرية، في كلمات قصيدته «بحب البحر»:

"بحب البحر لما يزوم..

وأعشق صرخته في الريح!

بحس في موجه شوق مكتوم..

لناس حره وحياة بصحيح!»

وبالطبع تشكلت للمدينة نماذجها الفنية الخالصة وأبرزها السمسمية، الآلة موسيقية التي احتكرتها مدن القناة. كما احتكرت أيضًا كتابة أغانيهم الخاصة النابعة من روح حياتهم اليومية وأبرز عناصرها الصيد، وتمثلها كلمات أغنية «هيلا هيلا هيلا هوب»:

"هيلا يالا وهيلا هيلا هوب ... ورميت الشبكة ف المايه ... باسم الرحمن ... كُن مع ربك تُنجى من الجان ... دا السمكة العاصية
أنا بجيبها ... وتعدي بحور والله ما سيبها ... ف كتالنا الحلوة نصطادها»

يتضح من تلك العناصر أن المدينة الناشئة استوردت ثقافاتها من كل مدن وقرى الإقليم كاملة، وانسجمت تلك العناصر بروح الوافدين الساعين لصناعة مستقبل جديد، ليتشكل في المدينة عنصران مستقلان: الأول هو العنصر الأجنبي الوافد مع شركة قناة السويس الفرنسية، والثاني هو العنصر المحلي الوافد من مختلف الأقاليم والمدن والقرى محملًا بأصوله وتراثه وتطلعاته المستقبلية الجديدة.

بورسعيد مدينة ساحلية صغيرة في الحدود الشمالية الشرقية لمصر، تحيط بها المسطحات المائية من كل اتجاه فأُثّرت في تكوينها الاجتماعي وسهّلت عملية الهجرة إلى المدينة الجديدة. تلك المدينة تبدل على حكمها العديد من السلطات منها الفرنسيين والإنجليز وقت الاحتلال ثم الحكم المصري، وأدى هذا إلى تغير العناصر العمرانية للمدينة كنتيجة أيضًا لتبدل الشرائح الاجتماعية للمدينة. فلم يستقر بالمدينة جماعة واحدة على مر تاريخها؛ وإنما مرت بمراحل متعددة من التحولات الاجتماعية وبالتالي أدت إلى تغييرات طفيفة وفي بعض الأحيان شاملة لبنيتها العمرانية. إن مدينة بورسعيد وعمرها الصغير نسبيًا تعرضت لحالات من الدمار والإعمار المختلفة متمثلة في الحرب والسلام.

نشأت أحياء المدينة تباعًا على مراحل سياسية مختلفة، وكان الحي الأشهر للمواطنين المصرين هو حي العرب، والبقية كانت أحراشًا ومستنقعات. أما حي الشرق، الذي يدعوه أهالي المدينة بحي الإفرنج، هو موقع كوزموبوليتانية المدينة. وفي مطلع الخمسينات من القرن الماضي شرعت الحكومة في تعمير حي المناخ ثم حي الضواحي. وأخيرًا في أواخر الثمانينيات شُيّد حي الزهور على حساب مساحة من بحيرة المنزلة، لتتغير الخريطة العمرانية للمدينة تمامًا في خمسين عامًا.

وبناءً على ذلك، انتقيت المتحدثين تباعًا حسب موقع نشأتهم واستقرارهم. فكان لزاما أن ألاحق ذاكرة أبناء حي العرب الذين حضروا الحربين- وهو أكثر الأحياء تعرضا للهجوم في المدينة خلال الحربين- ثم تتبع رحلاتهم من حي العرب للمناطق المُعمرة حديثًا في حي المناخ والضواحي والزهور لتكوين ذاكرة متنقلة مع أحياء المدينة وتحولاتها.

البيت الإيطالي

سيمون أرزت

الذاكرة الأولى، جيل الخمسينات

إذا استعدنا فضاء الحكاية الذي يكسب هذه الكتلة حضورها، ونظرنا إلى تلك الكتلة المعمارية من الخارج فستبدو وكأنها توجد دائمًا عند أطراف عيوننا باعتبارها تنتمي إلى الطوبوغرافيا البصرية للألوان والخطوط المحيطة بنا، ولكن برغم هذا الحضور الحسي المباشر والواضح لما هو معماري فلن يمكننا تصوره أو استحضاره أو المثول أمامه دون أن نشعر بتطلبه لمدينة ما، إذ سيبدو المعمار وكأنه عطاء المدينة الخاص للإنسان، لدرجة أنه حتى لو وقعنا على مبنى منفرد بنفسه في الفراغ، فربما لن نستطيع أن نراه إلا جزءًا من شيء آخر يظل يحيلنا إليه باستمرار، وسيبدو وكأنه نداء لمدينة آخذة في الظهور، ابتهال لحضورها، تبشير بقدومها، أو حتى نعي ونواح على غيابها![4].

ولد السيد كراوية- وهو الابن الذكر الأول لعائلته- في المنزلة، ولكن كانت عائلته قد استقرت في بورسعيد قبل ميلاده منذ عام 1942. وحينما سألته عن كيفية خروج عائلة كراوية من المنزلة إلى بورسعيد كان الرد: «لست أعلم كيف انتقلت عائلتي إلى بورسعيد، لكن حينما ولدت كانت كل العائلة من الأعمال والأخوال مستقرين في بورسعيد، وشغلوا عددًا من المهن من بائعي الفاكهة والخضر. أما بالنسبة لوالدي فقد كان مقاولًا وفي بداياته كان بنّاءً، لكني وعيت عليه وهو مقاولًا متكاملاً، فقد شارك كأحد المقاولين في بناء سجن بورسعيد والمستشفى الأميري».

كانت حركة البناء والعمران في بورسعيد تتخذ منحيين اثنين؛ المنحى الأول هو بناء البيوت الخشبية التي ازدهرت في حي العرب الذي جمع الوافدين المصريين من أصول صعيدية، والثاني هو البناء الخرساني. ونستشهد أن المحافظة نفسها في مرحلتي تطورها- حينما كانت محافظة الكنال ثم بعد ذلك محافظة بورسعيد- كانت تعتمد نموذج بناء خرساني لمؤسساتها والبنية التحتية. لكن ظل هناك وجهين للمدينة وهو الوجه النظامي الخرساني والوجه الشعبي الخشبي.

تبدأ سردية عم السيد- كما نناديه- في شارع نبيه في حي العرب، وتنقلت العائلة بين عدد من البيوت بالإيجار وكلها تقع في نفس الحي، ومن هنا نلتقط مشهد الطفولة والنمو للمدينة ومواطنها من حي العرب. استقرت العائلة في تقاطع شارعي نبيه والأنصاري حتى بعد حرب العدوان الثلاثي والذي كانت آثاره مدمرة على الحي. فعلي الرغم من القصف المستمر على مدينة بورسعيد، إلا أن المواطنين استقروا في بيوتهم قدر الإمكان وحافظوا على تواجدهم فيها.

وبالرغم من أن مجانية التعليم لم تكن طُبقت بعد، لكن حسب شهادة السيد كراوية كان البورسعيدية حريصون على تعليم أبنائهم. «في شارعنا كنا أنا والأطفال الذين نلعب في الشارع جميعنا نذهب إلى المدرسة.» من هنا يتضح أن مدينة بورسعيد كانت تعتمد على الارتقاء الطبقي بالتعليم، فكان عمال المدينة- الذين لم يكونوا بالضرورة متعلمين- حريصون على أن يذهب أبنائهم إلى المدارس.

4- عبد الناصر حنفي، «ما يراه الإنسان الطائر في المدينة: تمهيد أولي حول فينومينولوجيا المدينة»، مدينة، https://medinaportal.com/city-phenomenology/

وكانت البنية التحتية للمدينة أيضًا مُهيأة لتوفير المدارس. التحق السيد كراوية بمدرسة بورسعيد الابتدائية 1- والتي أصبحت معهد أزهري حاليًا، ثم مدرسة بورسعيد الإعدادية، ثم مدرسة بورسعيد الثانوية. تلك المدارس هي علامة من علامات حركة بناء المدراس والمؤسسات التعليمية السريعة. فلدينا مدرسة سانت ماري والتي تأسست عام 1887 وغيرها، ولكنها تقع في إطار حي العرب وحي الشرق حصرًا؛ إذ لم يكن لباقي أحياء بورسعيد وجود عمراني معتبر قبل السبعينيات.

إذًا المدينة لها مؤسساتها من مستشفيات ومدارس وأبنية حكومية وبيوت أهالي. فما الذاكرة عن عمران المدينة؟ وما هي ملامح المدينة لقاطنيها؟ تردد هذا كثيرًا في محاورتي مع عم السيد، ليجيبني: «لديّ تصور شخصي عن المدينة أننا كنا نعيش في مدينة بكر. تهت عن أهلي في حي المناخ، وذلك لأنه بعد تجاوزك لشارع الأمين وحتى الجبانات لا يوجد عمران وإنما أحراش ومستنقعات، وكانت تلك الأحراش توحي بأنها غير مأهولة». بالنسبة لمواليد الخمسينات في أيام الصبا كانت المدينة شديدة المحدودية تتمركز في حي العرب والشرق شمالًا ويليهم الكنال الداخلي وورش عمال السفن وعزبتين أشهرهما عزبة فاروق. أما باقي المدينة الحالية فكان أغلبها مستنقعات وأحراش، ومياه البحيرة تسود الأفق. وحتى منطقة تمثال ديليسبس؛ وهي مدخل القناة ومدخل المدينة الشمالي من البحر، كانت عبارة عن فراغ كبير عنصريه رمال الشاطئ من جهة والتمثال والميناء من الجهة الأخرى، ومساحة شاسعة من الفراغ بامتداد الشاطئ إلى آخر المدينة، شغلها لاحقًا في الثمانينات والتسعينات فندق هيلنان وعدد من الأبراج السكنية والقرى السياحية، مثل قرية النورس والكناري ومرحبا، والذين شكلوا سورًا يفصل بين المدينة والشاطئ.

وأضاف عم سيد معلقًا على تلك التحولات العمرانية «لقد مرت المدينة بمرحلة الصبا لتصبح عجوزًا الآن». فالعمران المستمر للمدينة في نصف قرن استحوذ على فراغاتها العامة تمامًا مع دخول الاستثمارات السياحية في المدينة. «لقد فقدنا البحر الذي كانت علاقتنا به حرة؛ فكل ما يتطلبه الأمر أن تحمل كرسيك وتذهب للشاطئ، إلا أنه الآن قد أصبح هنالك حاجز ما بين المواطن والبحر». ويستعيد عم سيد ذكرياته أيام الثانوية حينما كانوا يسكنون في شارع الأزهر بحي العرب «كان من المعتاد أن تخرج من المنزل وتمشي على قدميك حتى تجد نفسك فوق رمال الشاطئ». فقد كانت المدينة في هذا الوقت شاطئ مفتوح على مصراعيه لم يمتلك أحد فيه مبنى أو شاليه إنما فقط بعض الكبائن الخشبية التي لم تكن تشغل مساحة من الشاطئ أو تُكبِّل حرية الأفراد. كان الشاطئ هو واجهة المدينة الملاصقة لبيوت حي العرب أو الشرق بلا حواجز. أعطت هذه المساحة من الفراغ العام الإحساس بملكية المدينة لقاطنيها والتناغم مع طبيعتها.

لكن تلك الطبيعة كانت لها ملامح تختلف عن الواقع الحالي. أشار عم سيد في حديثنا لطبيعة المد والجزر في المدينة «كان المد البحر يغزوا شارع 23 يوليو؛ وهو أكبر شوارع المدينة، ليغرقه ويصبح الشارع كله جزء من البحر». فحدود البحر نفسها كانت حرة لا يتحكم فيها حواجز حجرية. البحر كان سيد المدينة؛ يتحرك كما يحلو له. ولكن مع التدخل البشري في المنطقة تراجع الشاطئ، وتم تشييد منطقة طرح البحر وبناء الكورنيش ووضع الحواجز الصخرية وتحديد حدود الشاطئ.

ومن المتغيرات أيضًا الكثافة السكانية للمدينة، فقد كانت الشوارع شبه فارغة. «لم نكن نرى سيارات في الشوارع، لم يكن في بورسعيد سوى 8 سيارات أجرة موقفهم عند حديقة سعد زغلول حيث يذهب إليهم من يحتاج إلى سيارة تنقله، وكان الموقف مشتركًا للسيارات الأجرة وعربات الحنطور». وبالرجوع إلى الصور الفوتوغرافية للمدينة، كان من الواضح أن طرقها مهيأة تمامًا للسيارات. فشارع أوجينا، وهو من أقدم شوارع المدينة، ما يزال خطًا رئيسيًا لخطوط الميكروباص التي تمر بالمدينة والشارع ما يزال على حاله منذ بناءه. بنية المدينة التحتية كانت دقيقة فلم تكن لديها مشكلات المياه أو الصرف الصحي أو التخطيط العمراني. تلك المميزات التي كانت تنعم بها المدينة كانت مقتصرة على حي العرب وحي الشرق ومدينة بورفؤاد حصرًا، حتى تعمير حي المناخ بعد حرب 1956 ليصبح هنالك عمران على شكل مساكن شعبية بتنظيم وبناء حكومي مصري خالص.

لبورسعيد روحيين. على الرغم من تعظيم تمثيلها بالبحر والميناء وقناة السويس، إلا أن تشييد بورسعيد نفسها جاء بمساعدة مياه بحيرة المنزلة التي أُستخدمت كوسيلة لنقل المعدات ومركزًا للصيد، حيث رُدمت بعض مناطقها برمال حفر قناة السويس ووضع الكابينات الخشبية الأولى للعمال الأجانب. لكن هذه المساحة الجنوبية الغربية الشاسعة من بورسعيد حملت أثرًا في حياة قاطني المدينة تعددت أشكاله في الخيال الأسطوري الموروث. فقد تناقلنا حكاية الجنية في البحيرة والتي تشابه حكاية النداهة في الترعة. ولعل خير ممثل الروح الشعرية للشاعر سيد حجاب في قصائده عن الصيادين والجنيات في بحيرة المنزلة في المطرية.

كان ذلك واضحًا في ذاكرة سيد كراوية. "أتهم بحيرة المنزلة أنها سببت لي مشكلة كبيرة، إذ كنت أسكن في الطابق الرابع، ولم يكن مقابل البلكونة سوى البحيرة. كطفل صغير استهواني أن أراقب لحظة غطس الشمس في البحيرة، تلك اللحظة التي لم أراها أبدًا. فقد مثّلت البحيرة صورة ما متخيلة في رأسي». ولعلي أحسد عم سيد على تلك المشاهد في طفولته، فنحن سكان حي الزهور- وهو الحي الأصغر عمرًا في المدينة والمبني بالأصل على بحيرة المنزلة- تم عزلنا عن البحيرة بسور وقوات من الشرطة تحرس أبواب هذه المنطقة المُسوّرة. وتحولت البحيرة من مشاع للناس إلى منطقة معزولة رغم أنه لا يفصلنا عنها سوا دقيقتين أو أقل مشيًا على الأقدام.

كانت مدينة بورسعيد في الخمسينيات والستينيات تنعم بالمساحة الكاملة لبحيرة المنزلة. وكانت البحيرة تمثل مصدرًا للتنقل في المدينة، وكانت هي المشهد الذي تطل عليه نسبة كبيرة من بيوت المدينة خصوصًا في حي العرب لأن حي الشرق كان الأقرب للبحر ومدخل قناة السويس. ولعل الجيل السابق لديه خيال وذكريات أكثر من ألعاب الطفولة على شواطئ البحيرة ومستنقعاتها وأحراشها، فينقل لنا أباؤنا حكايات تتراوح ما بين المغامرات في الصيد أو أشباح البحيرة وعفاريتها.

تنتقل ذكريات سيد كراوية من الطفولة الهادئة في شارع نبيه بين الشاطئ والبحيرة والشقة الصغيرة إلى بيت آخر في شارع الأزهر في ذات الحي. تعد تلك النقلة مميزة، إذ عرضته للتكوينات السكانية للمدينة. فكلما انغمسنا في حي العرب كلما انغمسنا مع الوافدين من أصول في الصعيد المعتدين بأصلهم والمحتفظين بلهجتهم وزيهم الأصيل. «كانت منطقة مزعجة، السكان كانوا صعايدة وكنا نخافهم حتى والدي كان يخافهم، لأنه في حالة حدوث مشكلة معهم يتكاتروا عليك حتى لو كانت مع عيل صغير سيأتيك بقبيلة من حاملي الشوم".

ميّز عم سيد بين جماعتين: الأولى صعايدة حي العرب وهم دائمي التفاخر بأصولهم، والثانية فلاحي حي المناخ. «يقولون احنا من دينها بورسعيديه يابا" فكانوا يعتزون ببورسعيديتهم وكانت بورسعيد هي نَسَبهم لأنفسهم. يحكي قصة أحد الصعايدة الوافدين في شارع السواحل. «في يوم ما وصل صعيدي إلى بورسعيد وكان في حلته كاملة جلابية جميلة والعمة النظيفة المهندمة (شايف نفسه). كان أطفال هذه المناطق يصطادونه بالتنمر والهتاف وشد العمة ويستمرون في مطاردته تحت حراسة مراقبة الرجال الكبار الذين يتصدرون في لحظة مهاجمة الصعيدي للأطفال. حتى يهزم الصعيدي ويخلعون عنه رداءة وربما يهرب باكيًا ذليلًا».

ضمّت ذكريات عم سيد بعض الحرف والمهن التي لا أراها اليوم في بورسعيد، كان أكثرها غرابة لي زرائب الخنازير وكانت تقع عند ماكينة الثلج خلف سينما الأهلي، التي كانت تعد أكبر سينما في بورسعيد وربما مصر كلها. أخذنا الكلام إلى السينما في بورسعيد، فالسينما لها حضور صريح في ذكريات كل أجيال المدينة ولكنها تحمل ثقلاً في ذكريات الشباب للأجيال الأكبر من المدينة لا تقتصر على حضور الأفلام وإنما اعتبار دور السينما صرحًا أو معلمًا مميزًا للمدينة، فيستدلون بها للإرشاد عن الطريق. ضمت بورسعيد عددًا كبيرًا من دور السينما. «بورسعيد كان بها ما لا يقل عن 12 سينما، شارع الثلاثيني كان به اثنان: البورسال والحرية. وكان يقع خلف الكنيسة في شارع محمد علي سينما الكوزمو وتلك لم أرها، وسينما أمبير ومكانها الآن الشابوري، وسينما إلدورادو والتي تحولت إلى مخازن لعمر أفندي بشارع النهضة». لم أكن أعلم أنها سينما حتى حديثنا، فكل ما أعلمه أن هذا المبنى المتهالك الذي أصادفه بعد نزولي من المعدية في بورسعيد كان مسرحًا قديمًا يؤدي فيه يوسف وهبي مسرحياته، وقد قدمت فيه أحد أشهر فرق الغناء والبالية في فرنسا عروضها، ليتحول بعد ذلك إلى مبنى من طابقين نصفها السفلي مخازن ونصفه العلوي مبنى متهالك من الخشب. «دخلت إلدورادو مرتين، مرة حيث أُقيم فرح أختي في أحد قاعاتها، والثانية شاهدت فيها فيلمًا والذي أتضح أنه فيلم شهير جدًا ولكني لم أعرف ذلك حينها وهو الفيلم الإيطالي **الفهد**".

تشتهر بورسعيد بأنها مدينة كوزموبوليتانية، ولكن عند بحثنا في ذكريات سيد كراوية عن الجالية الأجنبية لم نجد سوى اليونانيين «الخواجات». «لم أرى أجانب. رأينا اليونانيين (الخواجات). فالمعنى الكوزموبوليتان لم يكن موجودًا حينها. لكن كانت توجد قهوة هي قهوة اللوفر التي تقع في شارع الثلاثيني والبازار حيث كان الجرسونات من الطليان، وكنا نذهب للجلوس فيها حتى وقت الهجرة وكانت ميزتها أن قهوتها لذيذة جدًا، ويحضرون كل جرائد اليوم ويرتبونها على ألواح خشبية ليقرأها من يريد ومنها مجلة **المصور** ومجلة **آخر ساعة**. وكان هنالك سلوك رفيع في القهوة فالجرسون يقف مكانه لا يأتي إليك إلا إذا طلبت منه مشروبك". قهوة اللوفر كانت تقع في حي الشرق- ما نسميه بالأفرنج- لذلك كان لها طابع كوزموبليتاني خاص استمر حتى الهجرة عام 1969. ولكن هنالك مقاهي عمرها قديم شيدها المصريين، ومنها مقهى الفلاح الذي ذكره الكاتب الراحل كمال رحيم في روايته **بورسعيد 68**. « كم جذبتني مقاهي بورسعيد..! مقهى السلكاوي واليسقي وعمران وفلان وفلان ومقهى (الفلاح) بالذات عند التقاء شارع أوجيني بشارع محمد علي، والتي كانت تنبض بالحياة وكأن مصر كلها تجلس فيها وُتدْرِدش مع بعضها البعض»[5].

5- كمال رحيم، **بورسعيد 68**، دار العين للنشر، 2021

كان السؤال ملحًا، هل مازلت المدينة تتمتع بجماليتها؟ وجاءت الإجابة بالنفي؛ «زمان كانت أجمل». فبغض النظر عن التفكير في السؤال والوصول إلى إجابات منطقية كانت الإجابة مرهونة بالشعور. لدى عم سيد إحساس بالتغيير، المدينة تمتد وتتضخم فأصبحت أكبر في الحجم أضعاف ما كانت عليه. ولكن في ذات الوقت تقلص الفضاء العام للمواطن وإحساسه بالتماهي مع المدينة، وذلك ينبع من سياسات الخصخصة وبيع الأراضي للمطورين العقاريين. تحولت المدينة تدريجيًا وليس على مرحلة واحدة. تغير عمران المدينة نتيجة الحرب ثم التحول السياسي في الثمانينيات في عهد السادات. فمع نمو رأس المال وازدهار حركة التجارة وانتعاش المنطقة الحرة في بورسعيد، بدأت المدينة مرحلة تحول كبرى. «لقد انتهكت المدينة، فأنت لا تستطيع استغلال الفضاء العام. على سبيل المثال فيدان المنشية عجز الناس عن إقامة اعتصام في الميدان لاعتراض أصحاب المحلات والمصالح في الميدان. فقد تم انتهاك الفضاء العام الذي هو ملك للجميع. لقد كنا أصحاب البحر. كان لدينا احساس بالامتلاك العام وهو ما قد اختفى تماما الآن». وتعليقًا على ذلك يحكي عم سيد حكاية من الطفولة مع المؤسسات الحكومية وشعور المواطن أنها أمكنة تخصه «دخلت قسم المناخ وأنا صغير ولم يكترث أحد لسؤال أين تذهب أو ما جاء بك إلى هنا حتى وصلت داخل القسم إلى الظابط النباطشي. وهذا ما لا أستطيع فعله الآن وأنا كبير في السن وأصلع وأرتدى نظارة- حاج يعني. الآن أخاف أن أمشي بجانبه».

المنطقة الحرة هي حاليًا ما أعتبره حصان طروادة المدينة، فهي القضية العامة التي تشل حركة المدينة سياسيًا واجتماعيًا ومحل النزاع المستمر مع الدولة. تستخدم الدولة المصرية مسألة المنطقة الحرة في بورسعيد كأداة مفاوضة لإخضاع المدينة، ويتضح ذلك في إعلانها المستمر عن إلغاء البطاقة الاستيرادية والتي أصبحت هي الشاغل الأهم للحوار في بورسعيد ومسألتها السياسية الأولى. «في البداية كانت بورسعيد نشطة جدًا لأنها أول منطقة حرة في وسط سوق مغلق، وبالتالي أصبحت المدينة تستقبل كل الوافدين من جميع أنحاء مصر للاستثمار في هذا السوق الجديد. ولم يتوقف هذا النزوح إلى المدينة على الراغبين في الاستثمار والباحثين عن العمل، وإنما وفد إليها أيضًا نخب جديدة من كبار تجار مصر. فالذي اشترى سينما الحرية وحولها إلى مخزن كان أحد كبار تجار القاهرة ولم يكن من سكان بورسعيد». بالطبع في تلك الفترة ذاع صيت النائب البرلماني البدري فرغلي، وظهرت بورسعيد كقوة سياسية واقتصادية محركة في الاقتصاد المصري. وظهرت مع المنطقة الحرة والسوق الجديد ظاهرة التهريب والتي راكم من ورائها الكثيرون ثروات ضخمة، فقد كانت المدينة في هذا الوقت أرض الفرص. وظهرت حركة جديدة من شراء الأراضي لسكان جدد وبُنيت بيوتًا جديدة وبدأ معها ارتفاع طوابق البناء وظهور شكل مختلف من العمران يعكس انتقال رؤوس الأموال الجديدة إلى المدينة متزامنة مع تلك الطغمة المالية الناشئة.

المدينة إذًا مصدر تكوين الذات، ومحاولتنا لتكوين ذاكرة ذاتية تتعرض للانتهاك بسلب السكان الحق في الفضاء العام، وذلك ما هو واضح في سياسات التخطيط العمراني التي تسعى إلى تحويل المدينة إلى مجرد منتجع سياحي على الشاطئ لا يستطيع التنعم به إلا أصحاب الثروة، وعزل السكان عن حق التمتع بالمكان وطبيعته المُؤسِسة لذواتهم. عندما تطرقنا للنقاش عن الانتهاك على الذاكرة ومأسستها للذات تحدثنا عن المقاهي في بورسعيد. "القهاوي في حي العرب مثل قهوة الحرازات وغيرها من القهاوي في كسرى

ونواحي المدينة القديمة بعيدًا عن مقاهي الإفرنج التي تميزت بطابع كوزموبوليتاني. القهاوي كانت أداة صهر اجتماعي فحين تذهب إليها تسمع عن السياسة والغناء والفن والمجتمع والمال وهو نوع من صهر ذات البورسعيدية والهوية جزء من الذات. الذي يحدث في بورسعيد أن القهاوي كانت أقل الأماكن التي يحدث فيها تدخل سلطوي، وهنالك نوع من الألفة فعندما يختلف الناس لا يصل إلى الأمر إلى حالة هجوم سلطوي وإنما يظل الخلاف في نطاق الحوار. لكن ظهور الكافيه على النقيض من القهوة، لأن الكافية مؤسس على مبدأ أشرب مشروبك وارحل، فمبدأه هو الانتفاع بأكبر قدر من الزبائن. أما بالنسبة للقهوة فأنت بكوب شاي ثمنه بضع جنيهات يمكنك المكوث والاستقرار والسهر طوال الليل». القهوة كانت مصدرًا للعلاقات العامة وتعريف الشخص بذاته؛ فالمواطن يستطيع أن يذهب إلى قهوة النجارين أو النقاشين ليعرف نفسه كنقاش أو نجار وبالتالي يخرط في كتلة اجتماعية تعترف به وتتبادل معه أخبار المهنة والحياة وبعض المصالح. لم ينتهي تأثير المقاهي تمامًا، وإنما استقر تأثيرها في مناطق شعبية ومحصورة فيها. بينما التوسع التجاري- المُتمثِل في الكافيه أو سلسلة المطاعم- مازال يغزو وسط المدينة.

أنتقل لإسماعيل مناع والذي يفتخر بأن لعائلته امتدادًا طويلاً يصل إلى شبة الجزيرة العربية والصعيد، ولكنها استقرت في بورسعيد منذ خمس أجيال تقريبًا، ما يجعلها من العائلات التي عاصرت تأسيس المدينة. «وُلدت عام 1950، في بيت مشيدًا على الكنال الداخلي، وكان بجوارنا بيت جدي من طابقين وبيتنا كذلك. ذلك البيت الذي بناه والدي، وهو بيت خشبي والكنال في مواجهة البيت حيث تقع الورش التي يعمل بها هو وأعمامي، مؤسسوها والعاملين بها مصريين. كانت تأتي إلينا الأزق من السويس حيث يقومون بتجديدها».

تتمتع ذاكرة إسماعيل مناع بعلاقة مع البحر وإن كان الكنال الداخلي ليس شاطئًا إنما معبر مائي حُفِر لتسهيل وصول المعدات من بحيرة المنزلة إلى الميناء حيث عمليات حفر قناة السويس. الأرض التي بني عليها بيت والده وأعمامه كانت تعد ملكًا لهم، وهو شعور عام في تلك الفترة. كانت البيوت أغلبها من طابق واحد ما عدا بيتهم وعدد من البيوت المُكوّنة من طابقين أو ثلاثة وكلها من الخشب، على خلاف تلك التي بناها الأجانب في شمال المدينة قرب قناة السويس، وهو خلاف شمل المادة الخام للبناء من الخرسانة والحجارة إلى بيت بكامله من الخشب. وراء القنال الداخلي حتى شارع الدقهلية كانت تقع عزبة فاروق والتي كان عمادها من الصفيح والأخشاب فكان معظمها عشش. ذلك الواقع كان يختلف كثيرًا عن واجهة المدينة المتمثلة في البيوت والمباني الضخمة المُزينة بتماثيل رومانية أو يونانية ورموز مسيحية وأعلام أوروبية.

"كان بيتنا على الجهة المقابلة للكنال الداخلي، ثم جسر مرصوف يمتد من شارع القليوبية حتى القابوطي وتحت الجسر تقع بيوتنا. واستمر النازحون في المجيء إلى تلك المنطقة وكانت المساحة حرة فيبدأون ببناء عشش وهكذا تكونت عزبة فاروق». والمشهد الذي كانت تتمتع به المنطقة يُعبِّر عن هوية الحرفة التي يمتهنها سكان الكنال فهي مساحة من المياه وعلى شاطئيها ورش صيانة السفن والصيد. يذكر إسماعيل ميزة الألعاب التي كانوا يلعبونها صغارًا. "كانت هنالك مساحة كبيرة من الفراغ وذلك جعل ألعابنا ونحن صغار مختلفة عن الأجيال التي تلتنا لأنها ألعاب تحتاج إلى مساحات للجري والتنطيط. فقد كنا نلعب في المياه والرمال». كانت تلك

الميزة شعور عام للأطفال بالحرية والأمان وامتلاك المكان. لكن ذاكرة عم إسماعيل تتقاطع معي في حكاية اللعب في الشارع. ففي طفولتي في حي الزهور في مطلع الألفية الثانية كان معظم الحي قيّد البناء، وكانت أغلب المناطق عبارة عن رمال وأخشاب وزلط للبناء. فكانت ألعابنا استكشاف واستغلال معدات البناء، أو استفزاز الخفر حراس مواقع البناء. ربما كانت لديهم في زمنهم الحرية والطبيعة في اللعب، وعلى أيامي كانت نوعًا من المغامرة في استكشاف أماكن مهجورة جرى تعميرها فيما بعد.

هنالك اتفاق بين إسماعيل مناع وسيد كراوية على أن مدينة بورسعيد كانت «مدينة أفندية» على حد قولهما. أكّد إسماعيل أيضًا على إصرار الأهالي على تعليم أبنائهم على الرغم من أن الأهالي أنفسهم كانوا أميين. «والدي كان غير متعلم وكان مصرًا على أننا سنعوضه بتعليمنا، وساعد في ذلك أن تعليمنا كان مجاني. بورسعيد كانت مدينة أفندية إلى حدٍ ما؛ كان والدي يتحدث لغات أخرى، فقد كان يتعامل مع ملاّك اليخوت الذين يأتون إليه لإصلاحها؛ فقد كان إصلاح اليخت هنا أرخص من أوروبا». وبالحديث عن تعلم الأميين للغات أجنبية شرح لي إسماعيل كيف كانت قدرتهم على تداول اللغات مميزة. «كان والدي يسمع لفظة من هذا وذاك فتعلق في رأسه، ولكنه كان يستخدمها بطريقته الدارجة. وهذا ما كان عليه الوضع بالنسبة للبمبوطية فتعلمهم للإنجليزية كان تعلم لغة إنجليزية دارجة». لكن مهنة والده؛ ريس أزق، مهنة أقدم من البمبوطية ولها مكانة اجتماعية أكبر وبالطبع أكثر استقرارًا.

التحق عم إسماعيل بمدرسة البتول الابتدائية التي تحولت إلى معهد أزهري حاليًا، ثم الإعدادية في مدرسة النصر والتي أصبح اسمها الحالي مدرسة الشهيد أحمد سامي (شهيد أحداث سجن بورسعيد). لكن مدرسة النصر لم تكن بُنيت حينما التحق إسماعيل بالمرحلة الإعدادية. «ظللنا سنة أو اثنين ننتقل بين المدارس حتى اكتمل بناء المدرسة ثم أكملنا تعليمنا الإعدادي فيها». وهذا يوضح زيادة الإقبال على التعليم حينها، فكانت المدينة بحاجه إلى تشييد مدارس جديدة.

يُركّز إسماعيل على الطبيعة الخاصة لبيوت المدينة. "كان بيوتًا كثيرة مصنوعة من الخشب وهي ذات طبيعة خاصة بالنسبة للمدينة ولكن هدمت ليرتفع مكانها تلك الأبراج السخيفة». وردا على تساؤلي متى بدأت حالة الهدم تلك، أجابني: «بدأ هدم تلك البيوت بعد الانفتاح في عهد السادات ومبارك».

عهد إسماعيل مناع حرب 1956 طفلاً صغيرًا ولكنه كان شاهدًا على حرب الاستنزاف والتهجير، ثم بعد ذلك أصبح جنديًا في الجيش ليحضر حرب أكتوبر كسائق نقل في الجيش المصري. ومن ذكرياته عن العمران في بورسعيد مرحلة البناء بعد الهجرة. «هجرنا من بورسعيد ضمن خطة مدروسة وضعتها منظمة الشباب، خرج الناس حسب كشوفات معروف فيها من خرج وإلى أين وسيعود إلى أين. وهجرنا إلى المحلة الكبرى، فنزلنا بمدرسة إيواء حتى أجّر والدي شقة في المحلة. وكانت كل أسرة تأخذ مبلغ 6 جنيهات كدعم. في خطة العودة اختلف الأمر. جرى إزالة بيتنا لأنه كان من الخشب وقت الحرب واستلمنا مكانها شقة، وأزيلت عزبة فاروق، وكانت عزبة النحاس أزيلت قبلها فانتهى عصر العزب في بورسعيد». بدأت بورسعيد مرحلة جديدة من التعمير؛ فقد دُمِر جزء من المدينة في الحرب مثل شارع عبادي وبعض المناطق الأخرى في حي العرب. وكان العمران الجديد نظامياً متمثلاً

في الإسكان الاجتماعي: مربعات خرسانية من البيوت لونها أصفر أو أبيض تشغل بعض البلوكات. بدأ ذلك في حي المناخ بعد 1956 ثم استكمل هذا النمط بعد حرب 1973 لبناء المناطق السكنية ناصر والكويت.

"تغيرت المدينة بعد العودة من الهجرة. نشأ جيل أصغر خارج المدينة وقت الهجرة، فاختلطت قيم وعادات ولهجات سكان المدينة. وتزوج البعض من القرى والمدن التي هجروا إليها وعادوا بعاداتٍ جديدة وأسر جديدة. كما ندخل بورسعيد بتصريح حتى أسقط السادات تلك التصاريح فدخل بورسعيد طوفان جديد من النازحين ومنهم من دخلوها بأموالهم واستثماراتهم».

في ذكر العمران النظامي الأول في بورسعيد المُتمثل في الاسكان الاجتماعي، قصة هذا العمران لا تنفصل عن قصة المقاومة في بورسعيد. فبناء المنطقة الأولى وبالترتيب حتى المنطقة السابعة هي في الأصل قصة تعمير الأرض التي قاومت المظليين الإنجليز في 1956. "عندما نزل المظليين في 1956 في منطقة الجميل كان الأقرب إليهم سكان حي المناخ؛ وهم فلاحون نزحوا إلى بورسعيد فكونوا فيها أسرهم وتناسلت الأجيال لتنتج في ذلك الوقت جيلاً يعتز بكونه من بورسعيد، وهؤلاء هم من حملوا السلاح وقضوا على الدفعة الأولى من المظليين الإنجليز. واحترقت المنطقة بالكامل نتيجة القصف، فقد كانت بيوت من الخشب والعشش. وباحتراقها أُعيد إعمارها وبناء المنطقة الأولى وحتى السابعة والثامنة لتصبح بذلك أول مرحلة إسكان شعبي في المدينة». تعرضت تلك المنطقة للعديد من المضايقات من المحافظة. فقد رغب العديد من محافظي بورسعيد تباعًا هدم المنطقة الأولى لأنها قريبة جدًا من الشاطئ، واستغلال رقعة الأرض تلك في مشروعات سياحية أو عقارية جديدة.

في نقاشنا عن الفضاء العام، عبّر إسماعيل عن فقدانه بشكل كبير: «في توسيعهم للطرق في بورسعيد أزالوا الأرصفة وجعلوها ملاصقة للبيوت، فتقلصت مساحتنا في المشي وعدم مراعاتها لكبار السن. البحر كما ترى يتم تقطيعه أجزاءً جزء تأخذه القوات المسلحة وجزء تأخذه مشروعات بناء القرى السياحية أو الكافيهات. البحيرة أصبحت مُسوّرة بسبب الانفتاح والتلوث». وهنالك نظرة شائعة بأن الأراضي في بورسعيد تحت استحواذ القوات المسلحة فهي مستبيحة لنفسها حق امتلاك الأراضي في بورسعيد.

مرت المدينة بمراحل من العمران والازدهار، وفي كل من تلك المراحل تمتد المدينة على حساب الطبيعة المتمثلة في البحر والبحيرة. وكل مرحلة جديدة من العمران، تغير الملامح الطبيعية وبالتالي الإحساس والشعور بالمدينة. فهذه التغيرات تنعكس على انطباعات البورسعيدي مع تغير المشهد. «الستينات هي عصر ذهبي للمدينة، كانت حركة عمران، وكانت عزبة النحاس تقع خلف قصر الثقافة والمياه والبحيرة على الجانب الأخر ومن الشمال يقع البحر. أُزيلت عزبة النحاس وبُنيت مساكن ناصر والتي كانت تعد وقتها نهاية عمران المدينة ثم مساحة كبيرة من الفراغ والبحيرة. وعندما انتقل الناس من العشش إلى الشقق السكنية، كانت مرحلة تغيير في شخصياتهم حيث بعض من النظام والتقارب الاجتماعي. واستمر مشروع تعمير المدينة حتى عطلته النكسة».

أشار إسماعيل إلى ملحوظته عن تغير طبيعة تخطيط شوارع المدينة في تلك الفترة. «شوارع بورسعيد هي شوارع طولية وعرضية يحوطها البحر من الاتجاهين، فكانت تيارات الهواء تمر في المدينة تُرطبها. ولكن عند بناء منطقة الكويت، أُغلقت الشوارع على

بعضها فانقطعت تيارات الهواء، وكذلك اختلف المنظر الطبيعي من البلكونة فقد أصبحت البيوت في وجه بعضها البعض». وبما أن إسماعيل عمل سائق تاكسي في السبعينات بعد الحرب فكان تعليقه بأن بورسعيد كانت الحركة فيها دائمًا سهلة وطرقها كانت جيدة، لكن اختلف الأمر مع الزيادة السكانية وكثرة السيارات وسوء تنظيم وتخطيط الطرق. «كان شخص اسمه عبد ربه يملك أربع أتوبيسات وهي وسيلة المواصلات العامة وقتها. وكان هنالك ما يقل عن 10 تاكسيات في كل المدينة والباقي كان يعتمد على الحنطور، وكان أكبر مشوار للحنطور يكلف ربع جنيه. لكن الغلبة لعادة سكان بورسعيد في المشي، فكانوا يقضون مشاويرهم بالمشي. كنا نمشي من بيوتنا لسينما ريو نحضر فيلمًا ثم نعود مشيًا، وهي مسافة بالتاكسي تكلفك حاليًا 25 جنيه في المشوار- أكبر تكلفة تاكسي داخل المدينة».

لشخص من مواليد الخمسينيات، بورسعيد الحالية مدينة مختلفة تمامًا عن التي نشأ فيها في المساحة أو الشخصية. «تغيرت المدينة كلها، فلم يعد هناك من المدينة القديمة إلا منطقة في حي العرب ناحية شارع نبيل منصور. أما باقي المدينة فهي كلها جديدة، وهذا الجديد يخلو من التنسيق؛ الأبراج تُبنى على حساب الحس الجمالي فهي بلا أي مظهر مريح للعين. وقد أثّرت تلك المباني الجديدة على البيوت القديمة المجاورة لها وأصابتها بشروخ وأضرار كبيرة».

الذاكرة الثانية، جيل الستينات

كاميليا بكر من مواليد منطقة ناصر في عام 1965، وبذلك تعد من الأجيال الأولى التي وُلدت ونشأت في الإسكان الشعبي في بورسعيد. لدي كاميليا ذكريات خاصة في منطقة ناصر السكنية، حيث بدأت بأنواع الألعاب المختلفة والتي كانت مرهونة بمعدات الحرب المدمرة في المدينة. «كنا نلعب في الدبابات المُدمرة من مخلفات الحرب والخنادق العسكرية في المنطقة، وخلف ذلك عددًا من الضحايا لأنه للأسف بعض الأطفال نبشوا متفجرات من بواقي الحرب وانفجرت بهم». ولذلك تتميز ذاكرة طفولة كاميليا في بورسعيد بأنها ذاكرة الطفولة في زمن الحرب؛ إذا تبدأ ذكرياتها بالهجرة وتعود إلى مخلفات الحرب في المدينة والمدارس التي سميت بأسماء الشهداء. "كنت في مدرسة الشهيد المقدم الابتدائية المسائية، حيث كان المبنى الواحد للمدرسة بضم مدرستين باسمين مختلفين مدرسة صباحية وأخرى مسائية».

ترعرعت كاميليا وسط حي شعبي يتميز بخصال المدينة الجديدة، وهي منطقة سكنية تجمع عددًا كبيرًا من المواطنين الذين لا تجمعهم عصبية محددة سواء كان النسب الصعيدي أو الجذور البورسعيدية الأصيلة، لقد كان مجتمع الإسكان الشعبي أكثر تنوعًا وانفتاحًا. وكان للمنطقة نشاطاتها الخاصة التي كفلتها الحكومة. «كانت تأتي إلى المنطقة عربات سينما تسلط الضوء على جدار أبيض كبير، ويتحول هذا الضوء إلى سينما مجانية لجميع سكان المنطقة، ونشاهد جميعنا الأفلام من بلكونات بيوتنا».

كانت كاميليا من الفتيات الوحيدات المحجبات في المنطقة. فدونًا عن أخواتها الأربعة الأكبر منها ووالدتها، كانت هي الوحيدة التي اختارت الحجاب والنزوع الديني والذي مع الصحوة الإسلامية في الثمانينات تحول إلى نقاب. ولكن متى وكيف عرفت

كاميليا بالحجاب؟ كان ذلك السؤال يستند إلى الفضول في معرفة كيف انتقل النقاب إلى منتج في السوق كي تشتريه وهو زي غير شائع. "كنت أحضر الدروس الدينية في مسجد الهدي النبوي، وكان من أقدم المساجد قرب شارع أسوان ومرفق به مستشفى وعيادات خارجية إسلامية. وحينما تعلمت عن النقاب كان مصدري الوحيد للزي هو الخياطات اللواتي تخصصن في خياطته حتى تطور الأمر فيما بعد إلى محلات الملابس الخاصة للأزياء الدينية الإسلامية». ربما تعرضت كاميليا لبداية لتلك المجمعات الإسلامية التي غزت الأحياء الشعبية فيما بعد. في طفولتي وجميع أبناء عائلتي كنا نذهب إلى تلك المجمعات الإسلامية لحضور عقد قران أقربائنا وزيارة الأطباء. فقد كانت متوفرة في كل مكان في حي الزهور وكانت دائمًا أرخص ومن شدة انتشارها أصبحت علمًا من أعلام المكان نحدده كنقطة التقاء.

أما بالنسبة لطبيعة النقاب، انتشرت الظاهرة في البداية في شكل مقتصر على بعض المتدينين وهم الذين عملوا بخياطته وبيعه. ثم تحولت تلك السلعة فيما بعد لمحلاتٍ كبيرة تشغل مناطق بعينها وأغلبها مناطق شعبية. وحتى مطلع الألفية بدأت تظهر محلات جديدة أفخم وأسعارها أعلى تبيع كل تلك المستلزمات والأزياء، وأصبح هنالك موضة العباية الخليجي التي غزت جزء من أسواق الملابس في بورسعيد. فلم يعد الأمر مقتصرًا على استثمار بعض رجال الدين، إنما تجارة جديدة أضيفت إلى سوق الملابس في بورسعيد بغض عن النظر الميل الديني.

بعد إنهائها شهادة الدبلوم التجاري، انتقلت كاميليا مع عائلتها إلى حي الزهور الجديد. «كان الحي خالي من السكان ولا توجد عواميد للإنارة. أغلب الشوارع غير مهيئة للمشي أو لمرور السيارات وكان الوصول إلى الحي عن طريق أتوبيسات محددة تؤدي إليه. كان الحي موحش ويُشعِر بالخوف بالنسبة إلى عائلة من خمس فتيات، على النقيض تمامًا من الأمان السابق في منطقة ناصر». انتقل العديد من السكان إلى حي الزهور قبل تشييده كله، فكانت بعض المناطق السكنية قد اكتمل إنشاؤها بينما بقية المناطق قيد الإنشاء، وكان الانتقال صعبًا على كثير من الأسر وبالأخص أن حي الزهور لم يكتسب زخمه وحيويته إلا في مطلع الألفية أو بعد ذلك بقليل.

"تزوجت أختي الكبري في منطقة ناصر في الشقة المقابلة لنا، وأختي الثانية في أرض العزب، ثم باقي الأخوات وأنا تزوجنا وأسسنا عائلاتنا في حي الزهور وكذلك عائلة زوجي فأصبحت كل العائلة تسكن ذات الحي». كان حي الزهور هو الحي الجديد الذي يشغل مساحة كبيرة على حساب بحيرة المنزلة وكان هو مستوعب الأسر الجديدة. فكل من كان يرغب في الزواج يقدم على استمارات الإسكان وكان اسمها «استمارة الأمل» كانت بجنيه واحد فقط. «ذلك الوصل حصل عليه زوجي كمقابل لهدم العشة التي كان بناها فوق سطح بيت أمه في ناصر. وبدأ حي الزهور يستوعب السكان الذين تم منحهم الشقق السكنية مقابل إزالة العشش». تعود بي كاميليا إلى تلك النقطة والتي تُوضِّح أن تكوين حي الزهور هو التكوين الأوسع لبورسعيد. فهذا الحي جمع كل الأجيال الجديدة ما بعد الحرب والتي ليست لها نزعات أو عصبيات محددة سلفًا، إنما هم جيل من الطبقة البسيطة يحاول أن يبدأ حياته. وبالتالي في إطار تأسيس هذا الحي استغرق وقتًا طويلا لتأسيس شخصيته كأكثر الأحياء شعبية وكثافة سكانية في بورسعيد.

سُميت أغلب مناطق حي الزهور السكنية بأسماء الصحابة والشخصيات الإسلامية، وشكَّل هذا تحولاً ما في مسميات الحياة اليومية لكاميليا. فمن مساكن ناصر ومدرسة الشهيد المقدم إلى منطقة علي بن أبي طالب مع عائلتها ثم عمر بن الخطاب مع عائلة زوجها ثم إلى عمرو بن العاص في بيتها الحالي. وهي صفة تخص حي الزهور وحده، فالمسميات في حي الشرق وحي العرب مازالت تحتفظ بحسها القومي والبطولي للمدينة، مثل شارع نبيل منصور بحي العرب ومدرسة القناة بحي الشرق وشارع 23 يوليو. ومن الملحوظ في حي الزهور أنه يفتقر إلى وجود الكنائس، فالحي كله ليس فيه إلا كنيسة واحدة وهي كنيسة أبي سيفين أو الشهيدة دميانة والتي بُنيت في مطلع الألفية.

"كنت أول الساكنين في العمارة في منطقة عمرو بن العاص، ثم جاء سكان آخرين بعضهم من دمياط وبعضهم من الصعيد وآخرون سودانيون والبعض من الأرياف البعيدة عن محيط بورسعيد، فأصبحت أعيش في مجتمع جديد مختلف تمامًا عن مجتمع منطقة ناصر الذي نشأت فيه. كان التواصل في ناصر أسهل، فالجيران كانوا جيران والدتي السابقين في حي العرب فهي بورسعيدية أبًا عن جد. لكن في الانتقال إلى حي الزهور كانت كل العلاقات جديدة وعادات مختلفة". للساكنين الأوائل في حي الزهور أحساس بالغربة، فالحي كان يُمثل منطقة غير مأهولة مما شكّل في بداية الأمر الكثير من الصعوبات في التنقل وتكوين العلاقات الاجتماعية. لذلك أصبحت المجمعات الإسلامية هي مركز المصالح والعلاقات، فهي توفر أماكن لعقد القران والأفراح ومستشفيات رخيصة. في حين أن حي الزهور ظل حتى فترة قريبة من دون مستشفى حكومي حتى بناء مستشفى الزهور. فكان السكان يتجهون إلى مستشفى ناصر وكانت بعيدة بلا وسائل مواصلات.

حتى قبل بناء المجمعات الإسلامية المرفقة بالمساجد لم يكن هناك مساجد بنيت بإشراف حكومي. "تم بناء أغلب تلك المساجد بجهود ذاتية". أغلب المساجد التي بنيت في حي الزهور كانت عبارة عن رغبات أفراد أو مجموعات في بناء مسجد في تلك المنطقة التي هي في المقام الأول بعيدة عن المدينة كما كانت المدينة في مخيلتهم، وثانيًا لدعم تلك المناطق غير المأهولة بعد. أنشأ ذلك بعض الزعامات الدينية في المدينة، فأصبحت بعض المناطق السكنية معروفة بأسماء شيوخها أو اسم مسجد ما شكله مميز وحجمه ضخم.

الذاكرة الثالثة، جيل الثمانينات

ريهام هي أصغر المتحدثين سنًا، حضرت منذ مولدها التكوين الجديد والذي أعده التكوين الكامل للمدينة بأحيائها السبعة وتوزيع الكثافة السكانية فيها. «ولدت في منطقة ناصر سنة 1988، ثم انتقلنا من ناصر إلى بيوت الأمين في 2000. انتقلنا من شقة بمساحة 53م إلى شقة بنفس الحجم في الأمين". تنقل لنا ريهام صورة مختلفة عن والدها إسماعيل؛ إذ كانت المدينة تتغير في فترة طفولته ببطء شديد ووضع أسس الإسكان في المدينة على يد النظام الجديد في الخمسينيات. وربما ما عجّل أثر الحرب على المدينة بعض تلك الخطط. إلا أن المشاهد الأولى في حياة ريهام كان إزالة بعض المباني لتشييد الطرق وتوسعة المنطقة. «كنا نسكن في الدور الأرضي لظروف والدتي الصحية، ولفترة ما لم نستطع التحكم في المساحة الفارغة في مقابل البيت بسبب وجود السوق. ولكن سرعان ما هُدم السوق وعُمِّر مكانه طريق جديد فأعطانا بعض المساحة لنتمتع بها».

لكن انتقال ريهام من منطقة ناصر إلى بيوت الأمين لم يكن انتقالًا كبيرًا؛ فالشقة بنفس الحجم أولًا، وثانيًا هي على بعد شارعين من منزلهم القديم. لكن المشهد الذي تتذكره ريهام عن خارطة منطقة الأمين هو مشهد اختلف سريعًا أيضًا. «كان أمامنا عشش الحرية والتي سرعان ما تمت إزالتها». وحينما نتطرق لوصف العشش، فنحن نتكلم نوعًا ما عن منطقة غير مأهولة وغير خاضعة للرقابة أو أشكال التنظيم الحكومي في وصفنا المعتاد، ما يوحي نوعًا ما بأنها مناطق خطرة ولكن هذا ما نفته ريهام. «لم أكن أشعر أنها تشكل خطرًا في طفولتي أو أخشى الذهاب إليها، وربما يرجع ذلك إلى علاقات والدي الاجتماعية في المنطقة، فكنا نعرف بعضنا وكان الوضع آمنًا». وتلك ميزة تشاركتها كاميليا التي تسبق ريهام بأكثر من عشرين عامًا في تلك المنطقة، فقد أشارتا أن ما كان يضمن الأمان لهن كنساء هو المحيط الاجتماعي بين السكان ومعرفتهم ببعض، وهذا ما أجده شبه معدوم هذه الأيام في منطقتنا الشعبية في حي الزهور. لكن نوهت ريهام إلى المخاطر التي كانت كامنة في تلك المناطق المحاطة بالعشش من تجارة المخدرات التي كانت معروفة بها.

ذهبت ريهام إلى المدارس الجديدة في تلك الفترة، فاستمرار المحافظة في بناء المدارس الجديدة كان شيئًا ملحوظًا. "التحقت بمدرسة السلام الابتدائية لأن والدتي كانت تعمل إدارية بها، ثم بمدرسة الزهور الإعدادية بنات». وهنا أشارت ريهام إلى أن الانتقال إلى مدرسة الزهور الإعدادية في منتصف التسعينات كان الانتقال الأصعب بالنسبة لها؛ فحي الزهور كان ما يزال الجانب المظلم من المدينة الذي لم يتم تعريف هويته بعد، وكان بالنسبة إلى أغلب السكان منطقة غامضة وغير آمنة، هذا على الرغم من أن المنطقة التي تقع فيها مدرسة ريهام الثانوية- مدرسة علم الدين الثانوية بنات- بُنيت في الأصل على ردم لامتداد بحيرة المنزلة في هذا المكان والذي يتقاطع مع ذاكرة والدها الذي كان يمر على تلك المنطقة وهي مجرد مياه ومنطقة غير مأهولة أو بقعة للصيد. لقد احتل عالم ريهام بمؤسساته وطرقه وعمرانه مساحة من المياه والفراغ في ذاكرة والدها عن المدينة. وأذكر هنا ما قالته عن انطباعها الطفولي عن تلك المنطقة. «كانوا يقولون لنا في المدرسة أن موقع هذه المدرسة كان بحيرة المنزلة فكنا نسألهم هل هذا يعني أننا فوق الماء!».

في شارع الأمين هنالك مشهد كان يحيرني، وهو رؤية كنيسة بجوار مسجد وهما كنيسة ماري مينا ومسجد الصالح. وحينما سألت ريهام بظروف تواجدها في حياتها في هذا الشارع أغلب عمرها نفت معرفتها بظهور أي منهما أولاً؛ كانا دائمًا هكذا في مخيلتها. الإجابة كانت عند إسماعيل الذي أفاد أن الكنيسة بنيت أولًا ثم تبعها بناء المسجد، والذي أُلحق به أيضًا مجمع طبي إسلامي. شهد شارع الأمين، أحد أقدم الشوارع في المدينة والشارع المطل على أكثر المناطق شعبية من الخمسينات وحتى الألفية الجديدة، الصراع ما بين ما هو إسلامي وما هو مسيحي مع الصحوة الإسلامية في بورسعيد والتي نادرًا ما يتم الإشارة إليها؛ إذ أن أثرها البالغ لم يكن في حركات سياسية أو اجتماعية بقدر ما كان في التخطيط العمراني. وظهر هذا التفاوت في المشهد بين الأب والابنة، ليختلف وصفهما التاريخي لذات الشارع ومعالمه.

لم يكن هنالك عدد من الكليات في بورسعيد ما يسمح بتكوين كثافة طلابية بالمدينة. "بُني معهد الخدمة الاجتماعية في بورسعيد سنة 2005 وكانت في بورسعيد حينها كليات التجارة والتربية والهندسة، ولم تكن كلية الآداب قد فتحت أبوابها بعد". من ذاكرة

ريهام نشهد أن الزخم الطلابي الذي كان حاضرًا في مصر والذي شارك في الحركات الاحتجاجية منذ غزو العراق في 2003 والمظاهرات الداعمة لشعب غزة وحركة كفاية ومظاهرات 6 أبريل وختامها في 25 يناير 2011 لم يكن لها أثر في بورسعيد. فالموقع الجغرافي لكل كلية كان يبعد عن الأخرى عدة كيلومترات، فليس في المدينة حرم جامعي يجمع الكليات وإنما مباني متفرقة على أحياء بورسعيد. يقع معهد الخدمة الاجتماعية في مبنى منفصل خلف شارع محمد علي، وعلى بعد شارع يقع مبنى كلية التربية والذي فيما بعد ضم كلية الآداب بأقسامها وهو على شارع محمد على مباشرةً، ثم كليتي التجارة والهندسة في بورفؤاد، وكلية التربية الرياضية في أقصى مدينة بورفؤاد. وفي السنين الأخيرة تأسست كلية الطب في حي الضواحي، ثم كلية العلوم وكلية الصيدلة في مبنى واحد في حي الزهور. وتم ذلك على مراحل بطيئة استغرقت أعوامًا لاكتمال تلك المبان التعليمية المتشرذمة في بقاع المدينة المختلفة والتي لا تسمح على الإطلاق بأي تجمع طلابي في المدينة.

مرت ريهام بمشكلاتٍ في السكن. فقد اشترت العائلة شقة في شارع الأمين، وعانت بسبب أن المبنى كان على وشك الانهيار فدخلت في مأزق الإسكان الذي يمر به أغلب سكان بورسعيد. «اشترينا شقة الأمين ولكن المحافظة رفضت إعطاءنا العقد الأزرق. حصلنا على حكم بالترميم ولم تستأنف المحافظة على هذا الحكم، ولكن صُدمنا حينما أبلغتنا المحافظة بأننا المكلفون بتنفيذ الحكم والترميم على حسابنا الشخصي. صدر بعد ذلك قرارًا باستبدال الشقق، فمن كان يسكن شقة في الأمين سيتركها ويأخذ بدلًا عنها شقة في المشروع الجديد، وهذا ما لم يتحقق. فنشبت أزمة في المحافظة من غضب السكان، فالناس تقيم في بيوت قابلة للانهيار مع تقاعس المحافظة في التجديد أو الرفض التام لذلك لرغبة المحافظة في قطعة الأرض ذاتها لتشييد مشروع جديد. وكنا في عمارة رقم 14 فقاموا بهدم العمارة رقم 15 وقالوا لنا يجب عليكم الإخلاء لأن العمارة ستهدم الأسبوع القادم، وبالتالي سيتم نقلنا. إلا أن هذا لم يحدث فقد تركنا في البيت المحتمل سقوطه في أي وقت[6]. وانتقلت المحافظة للعمل على هدم مبان أخرى في تجاهل تام لنا. وبعد مطالبات وعدد من الشكاوى اكتشفنا أن المشروع المفترض نقلنا له قد تم بيعه بالفعل؛ أي ليس لنا مكان فيه أصلاً. والحل بالنسبة للمحافظة أن نسكن في شقة إيجار على حساب المحافظة بحدود 800ج فقط وهذا ما لم يحدث. استمر السكان في محاولاتهم وتكتلاتهم وشكواهم والتي وصلت إلى حد قطع الطريق، مما تسبب في قلق كبير بالمحافظة. وبسبب التقرير الصحفي الذي تم بسبب والدي، جرى اضطهادنا من المحافظة وظللنا من دون حل. شهدت تلك الفترة ذروة مشكلات الإسكان في بورسعيد والتي استمرت طويلًا».

كانت هذه الفترة التي مرت بها عائلة مناع فترة صراعات جمة بين السكان حيث بيوتهم مهددة بالانهيار فوق رؤوسهم مع تقاعس المحافظة، أو احتياج كبير من شباب المدينة لبيوت يسكنوها ويبدؤون حياتهم فيها. شهدت المدينة حينها تظاهرات واعتصامات أمام ديوان عام محافظة بورسعيد، وهو مشهد أتذكره جيدًا. فكنا نجد المئات يتظاهرون أمام المحافظة كل شهر تقريبًا، والسبب الأهم تهميش المحافظة للمواطنين والرد عليهم بالتسويف أو العنف.

6- "سكان الأمين بحي المناخ ببورسعيد ومخاوف من الموت تحت الأنقاض، أخبار النهار، 7 ديسمبر 2018. متاح على: https//:tinyurl.com/h75j6j8r

تعليق ريهام أنه في بداية العشرينات من عمرها كانت المدينة تتغير أو تغيرت بالفعل، على الرغم من أن حجم التحول الذي شهدته مدينة والدها القديمة كان أكبر أثرًا في تكوين أحياء من الفراغ واستبدال جغرافية طبيعية بأخرى صناعية متمثلة في الأحياء الجديدة. إلا أن جيل ريهام شهد السرعة والمشروعات الكبيرة على حساب المواطنين والمشروعات الاستثمارية الخاصة في المدينة. يمكن القول إن تلك الفترة كانت ذروة التحولات الكبرى على حساب المواطنين بعدما تأسست مدينة أكبر من تلك التي دعمتها دولة يوليو وميزتها كثيرًا في الخمسينات والستينات؛ إذ أصبحت قبلة للمصالح الجديدة. ربما انعكست الطبيعة الجديدة للمدينة بنوع ما من الاغتراب والانفكاك الاجتماعي، فظهرت بعض الحوادث والجرائم وبوادر عنف. وتلقت ريهام نصيبها من العنف في محاولة اختطاف. «ركبت تاكسي للعودة إلى منزلي من قرية النورس السياحية، وبدأ السائق في الدخول إلى طرق مختلفة تبعد عن الطريق المعتاد. وليس هنالك طرق مختلفة في بورسعيد، فمساحتها الصغيرة تجعل كل طرقها معروفة. وعندما طلبت من السائق التوقف زاد سرعته، فضربته بحقائبي والتي كان بها زجاجة عطر ثقيلة مما جعله يهدئ السرعة. وقفزت من التاكسي مما عرضني لبعض الإصابات. تلك ربما المرة الوحيدة التي تعرضت فيها لمثل هذا الموقف «. ما تذكره ريهام من محاولة اختطافها لكونها فتاة وحيدة ظاهرة كانت انتشرت في المدينة في مطلع الألفية من اختطاف الفتيات. وربما كان حظ ريهام أوفر من غيرها، إلا أن المدينة في تلك الفترة كانت تشكل خطرًا على الفتيات والأطفال مع انتشار الجرائم وعلى الأخص في حي الزهور، الذي كان أبعد ما يكون عن الرقابة والأمان في ذلك الوقت.

المدينة الصورة والذاكرة غير المكتملة

من يعرف المدينة؟ ومن لديه ذاكرتها؟ وهل الذاكرة العمرانية في بورسعيد هي ذاكرة تراكمية أم منفصلة؟ أطرح هذا السؤال في كل محاورة مع أحد سكان مدينة بورسعيد، فلا أحد يملك الرؤية الشاملة لمحافظة تتجاوز مساحتها 3000 كم مربع بقليل وعمرها 165 عامًا فقط. فهي مدينة قد تعد بعض المناطق السكنية في القاهرة القديمة أكبر منها عمرًا. نلاحظ من خلال المحاورات السابقة أن كل متحدث كان يرى جانبًا أو اثنين من جوانب المدينة وعاش معها مرحلة التطوير والتشييد، إلا أنه لا أحد من المتحدثين يملك في ذاكرته أو كان يملك في تخيله مشهد الامتداد المستمر والتضخم المستمر للمدينة. مدينة بورسعيد هي مدينة حيوية وتستمر باستقطاب العمالة والسكان. وتتركز تلك الاستقطابات حاليًا في مصانع الاستثمار التي تستغل العدد الأكبر من الوافدين، سواء كانوا مستقرين في المدينة كموطن جديد لهم أو يمرون برحلات الذهاب إلى العمل اليومية شديدة الخطورة بسبب حوادث الطرق المستمرة، وتلحق بهم فئة أخرى من العاملين اليدويين المتمثلين في عمالة الفاعل والأشغال البدنية الشاقة.

المدينة التي نراها الآن يسيطر عليها إدارة سلطوية متمثلة في مصالح المقاولين الكبار الذين يرون أن بورسعيد هي مدينة استثمارات عقارية جديدة. وتحت دعوة تطوير المدينة، تلحق مدينة بورسعيد الهادئة بطوفان المشروعات العقارية الجديدة في مصر. فكما نرى من المحادثات أعلاه أن المتحدثين يروا المدينة كصورة حضورهم هم، ولربما كانت الهوية المضمرة التي لا يُعلن عنها هي أن مدينة بورسعيد الكوزموبوليتانية التي أسسها واستفرد بثرواتها الأجانب على حساب سلطة هشة تميل بالتبعية للإمبريالية بجناحيها الإنجليزي

والفرنسي، والتي كانت تحمل في باطنها حملًا ثقيلًا من السكان المصريين المؤهلين لتملكها. هؤلاء الذين كانوا يعملون كسخرة أو فاعلين ثانويين في المدينة والذين كانوا يرون المدينة الحديثة المُشيدة بالخرسانة وتستقبل السفن البخارية والسلاح الإنجليزي من سفن وطيران، كانت لهم لحظة أن يستحوذوا عليها لتصبح هي هم. إلا أن تمام ذلك الاستحواذ والذي تم بالاستقلال بعد معركة الجلاء في 1951 كان متمثلًا في الاستحواذ على تلك الرقعة البسيطة من المباني المواجهة لميناء وهيئة قناة السويس بمشروعاتها وحي العرب الذي يتمثَّل موضع قدمهم الأصيل في المدينة.

تلك المدينة التي اغتنمها ساكنوها الثانويين الذين كانوا يسعون للارتقاء طبقيًا بتعليم أبنائهم أو انخراطهم في الحرف التي تتماهى مع طبيعة المنطقة الاقتصادية لم ولن تكون المدينة التي استمرت في النمو على تلك الرقعة محتلة البيئة الطبيعية للمدينة المتمثلة في الشاطئ وفي البحيرة والأحراش. بل كانت مدينة بورسعيد الصورة المونولوجية التي تناشد نفسها في المخيال المصري والقومي بنضالاتها وحروبها وانتصاراتها وهزائمها، ولم ولن تكون مدينة بورسعيد التي تنمو بقوة ولكن قوة هذا النمو غير قادرة على استيعاب الحمل الثقيل في باطنها من الوافدين والسكان الطامعين في الاستحواذ على المدينة.

العشش التي أُزيلت إبّان الحرب- والمتمثلة في عزبتي فاروق والنحاس- لم تكن نهاية السكن غير المُنظم؛ فهو لم يكن عشوائيًا بوصفه الشائع عن انعدام النظام، وإنما كانت الطريقة الأمثل لتعمير المدينة التي يسكن فيها الناس ومدينة الشعب وليست مدينة الصورة. فأغلب العائلات المصرية التي توطدت في المدينة لم تنشا إلا بافتراش الفراغ أرضًا لها ثم بدأت هذا التعمير الذي يلائم ظروفها، وكأن الأرض مشاع والمدينة نفسها كانت هي الجذور الأهم لبقاء المدينة الحقيقية بعد الجلاء وتحقيق الاستقلال. إلا أن تلك الحقيقة نفسها هي حقيقة غير مكتملة مع استمرار النمو السكاني. فمع كل جيل جديد نجد نزوعًا لتكوين المدينة. لكن التكوين لم يتم بشكل جماعي أو الشكل العالق في ذهن السكان، وإنما كان على هيئة حركة تعمير وإسكان وتشغيل هذه الحمولة من الطامعين في المدينة وتنظيمهم تحت سلطة الدولة، وهو نهج اعتمده الجيل الأول الذي حضر الاستقلال في الخمسينيات والستينيات. ولكن مع التغيرات السياسية واستقرار تلك الكتل واكتفاء الدولة بقدر ما منهم، كانت الدولة تسلك مسارًا جديدًا في التخلص من تلك الحمولة المستمرة من قلب المدينة نفسها إلى أطرافها. ومن هنا ظهر حي الزهور والمشروعات السكنية المترامية في المناطق الأبعد من كل حي. ولكن يظل القلب القديم للمدينة؛ والذي هو قلب المدينة الصورة المتمثل في حي الشرق وأجزاء من بورفؤاد؛ خاليًا من تلك المشروعات الإسكانية الاجتماعية أو النمط الشعبي من الإسكان.

على مدار السنين كانت الشخصية الشعبية للإسكان الاجتماعي في المناطق الأولى هي المصدر التعريفي عن الطبقة الشعبية في بورسعيد. ولكن ترامي النمو في البناء والتعمير كان يعكس طموحات وتوجهات سياسية جديدة تمثلت ربما في السيطرة الإسلامية على المناطق الشعبية الجديدة مثل حي الزهور، مع الملاحظة أن تلك السيطرة لم تكن تامة أو مطلقة بل جزئية. ففي الزهور كان يستوعب في داخله كل حاجة جديدة للوجود في المدينة وبل في خلق المدينة نفسها. اشتهرت بورسعيد بميلها اليساري والناصري فترات طويلة؛ فكان التناطح الانتخابي في البرلمان بين أفراد أمام تخمة الرأسماليين في المدينة المتمثلين في نواب الحزب الوطني أو

في اليساريين المتقربين إلى الشرائح العاملة المنظمة في بورسعيد أو كبار وصغار الموظفين. وذلك كان واضحًا في اكتساح البدري فرغلي، النائب التاريخي للمدينة، للبرلمان سنوات طويلة. لكن تلك التمثلات أيضًا لم تكن تعكس المدينة التي تنشأ وتكون المدينة دومًا في حالة نشوء مستمر. ولكنها كانت تعكس الطموحات المتطورة منذ جيل الطامعين في المدينة الحديثة، أي المدينة الصورة. فنجد أن حي الزهور لم ينجح فيه تقريبًا مرشح من اليسار وبعض نوابه كانوا من الإخوان المسلمين والذين لم يحصلوا على مقاعدهم بسهولة وإنما كانت دومًا بصراع مستمر مع أحد المرشحين المجهولين في الحي الشعبي والأكبر والأكثر كثافة سكانية غير مسيطر عليه سياسيًا وإنما يتبع هواه وعلاقاته والتي لم تكن مفهومة أو تحظي باهتمام. أما بالنسبة للمرشحين من الحزب الوطني فكانوا ينتصرون بمصالحهم التي يستقطبون بها الناس أحيانًا، ولكن لم يكونوا يحظون بالتقدير من سكان الحي. وربما تكون الصورة الأوضح هي في تفضيل سكان هذا الحي نائبًا شابًا غير متمرس سياسيًا لدورتين كاملتين ومتتاليتين على نظرائه من السياسيين المدعومين بأحزاب أكبر أو أثرياء البلد.

حي الزهور هو الحي الشعبي المنفصل تمامًا عن تقاليد وأعراف المدينة وتراثها، فلا نجد هنا احتفالًا بحرق اللبي في شم النسيم كما يحدث في حي العرب، ولا حفلات السمسمية، ولا تسكنه أشهر العائلات بالمدينة المعروفة بالصيد أو الحرف أو الفنون مثل عائلة خضير. إنما تكون هذا الحي من الطامعين الجدد الذين عجزت المدينة على استيعابهم في باطنها. إلا أن مشروعات وامتدادات المدينة الاستثمارية الجديدة اقتربت من هذا الحد وبدأت بالفعل في منازحة هذا الحي بمشروعات جديدة تتمثل في مجمعين سكنين مُسوّرين في أُقصى غرب حي الزهور. وبدأت المحافظة في مشروع تطوير الطرق، والذي لا فائدة منه للمشاة تقريبًا، فقد أصبحت الأرصفة أنحف والشوارع أوسع من أجل تسهيل حركة مرور الوافدين إلى تلك الكومباوندات في طريقهم، حيث لابد أن يمر من قلب حي الزهور، أي ناحية البحيرة.

امتلك كلا من سيد كراوية وإسماعيل مناع هذه اللحظات الأولى مع الاستحواذ المصري على المدينة بعدما بدأت المدينة تتكلم بلسانهم، فكانت لهم الطبيعة والسلطة على هذا المشاع ومعه الفخر بهذا الاستحواذ على المدينة الحديثة. بينما لم يتنعم به أمثال ريهام وكاميليا لأن تلك اللحظة قد مضت ولا عودة إليها. لقد فقدت كاميليا الحس الجماعي والشعبي في منطقة ناصر الشعبية بالانتقال إلى الأطراف الجديدة للمدينة تحت الإنشاء والتي هيمن على جزء منها النزعة الإسلامية بما توفره من خدمات وعلاقات عامة بديلة. أما بالنسبة لريهام فقد عاشت على ذاكرة أبيها عن طبيعة المكان والذي تحول تمامًا للنقيض، فهو أحياء ومباني ومصالح خاصة جديدة تقبع مكان بيوتهم القديمة وحكاياتهم. إلا أن سيد وإسماعيل يعلمان أن ما عاشاه هو ذاكرة قد تمحى وتندثر لشكل ما من أطوار المدينة هو بالنسبة إليهم المدينة المثالية التي ولى زمانها.

إن حي الزهور بتكويناته وأجياله الجديدة وطبقاته غير المتناغمة هو الحي الأعنف والذي كانت تستغرق مشروعات التنمية فيه فترات طويلة حتى تتحرك إليه. فبعد أن صار الحي يملك الكثافة الأكبر من سكان بورسعيد صار يستوعب أيَضًا الآفات الاجتماعية التي تفتقر إلى تنظيم اجتماعي يقومها. حوادث العنف هنا متزايدة وجلية. الاهتمام بالتعليم في انحدار من طرفي السكان والحكومة،

فالمدارس تعاني من تكدس وإهمال في البناء والصيانة، وتفتقر الشوارع إلى الإضاءة، بالإضافة إلى الأزمات في الصرف. وهي ما لا يشهده السكان في المناطق الأقدم من بورسعيد. لربما هذا قد يعكس طموحًا طبقيًا ما. الراغبون في الارتقاء طبقيًا ينفون تمامًا رغبتهم في السكن في هذا الحي. إلا أن سكان هذا الحي يمنون أيضًا فعادوا إلى الفعل الأول من المدينة، وهو شغل المساحات الممكنة من الفراغ العام بأعمالهم. فتراهم يهدمون أحد الغرف في الطابق الأرضي ويفتحون فيها محلاً، أو يفترشون مساحة بسيطة ويعلقون معداتهم على الجدار أسفل العمارة ويرسمون على الجدار اسم ورشة ما للحدادة أو النجارة لا هيكل لها سواء هذه الرقعة من الفراغ العام البسيطة على الشارع.

هناك نزوع دائم داخل بورسعيد إلى الحق في المدينة والحق في مكتسباتها، والذي تمثل في أحد الشعارات الشوفينية شديدة الطفولية «بورسعيد يا دولة»، وهو في رؤية السكان للمدينة كحداثة منتجة. تلك الحداثة التي لا يطالونها ولا ينتفعون بأثرها. إنما هي رغبة دائمة في تلك المدينة التي لن يمتلكوها وإنما يقصون منها، ومن هذا الإقصاء يشيدون المدينة المتمثلة فيهم. لكن تظل المدينة هي تلك المدينة الصورة التي يرونها في الجانب الشمالي منها وليس لأنها للشوارع الأرقى أو البيوت الأفخم ولكن لأنها المدينة المنتجة والشكل الحضاري الكامل المستخدم في السردية عن المدينة. وبالعودة إلى المتحدثين نرى أن تلك المدينة كانت تنقلب عليهم طوراً فآخر، فهي ما تلبث أن تستقطبهم ويحوذون عليها فتلفظهم ثانيةً إلى أطرافه. فعلاقة السكان مع بورسعيد هي علاقة نمو على حساب الفائض البشري الصانع لهذا النمو.

يتمثل ذلك اللفظ في القضية السكانية، فالمدينة العصية على التملك الجماهيري هي مدينة ذات طابع جغرافي-سياسي مرهق لأطرافها فالمدينة محاطة بآبار من الغاز وبوجود قناة السويس واتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل. هي منطقة أمنية تمامًا تجعل تملك الفراغ العام المتمثل في أراضيها مسألة شائكة، فلا أحد يملك بيته في هذه المدينة على الرغم من العقود والاعتمادات الورقية. فكل بناء هو قابل للحركة وكل كيان بشري هو قابل للترحال تحت ذريعة أمنية أو تطويرية. نشهد من ذلك هذا الإحساس المترامي في حي الزهور تحديدًا أنه تم بناؤه في الفراغ ولربما يتم الإلقاء بهذه الكتلة السكانية إلى فراغٍ أبعد إذا تطلب الأمر.

يرى هنري لوفيفر أن النتيجة الأخيرة من التطور الصناعي هي المدينة، فالمدينة هي مُكوّن المجتمع بعلاقاته الاجتماعية والسياسية وذلك عن طريق الخدمات اللوجيستية التي توفرها مثل شبكات الطرق وتوفير الأسواق وتسهيلات التجارة وفتح المجال لرأس المال[7]. ونظراً لأن بورسعيد هي مدينة لم تكن ذات وجود حقيقي قبل حفر قناة السويس إلا أنها تكونت بالفعل من خلق المنطقة الاقتصادية القائمة على قناة السويس وحركة التجارة العالمية مما ألحقها بعلاقات لوجيستية ضخمة ومنها الوجود السكاني القائم على خدمة هذه الحركة التجارية. وإذا نظرنا إلى تاريخ عملية الإنتاج في المدينة، فنراه متمثلًا في حركة استيراد دائم صبغت على سكان المدينة طابع من العلاقات التجارية المؤقتة والتي تحذف بالضرورة قيمة العلاقات الأصلية المتمثلة في خلق المدينة.

7- Henri Lefebvre, *The Right to the City*, p5, 1996.

اضطلعت مدينة بورسعيد بالممارسات المادية الحديثة والتي أنتجت ما يسميه بول كورينتن «النسيان الثقافي»[8] وهو نابع من تأقيت عمليتي العمل والاستهلاك. فتحول المصريين المقيمين في بورسعيد وزائريها إلى عنصر خامل في صناعة التاريخ؛ حيث يتمثل دورهم في المدينة بالعمل من أجل الترويج للسلع الخدمية، وذلك بعد تفشي النماذج الجديدة المتمثلة في العلامات التجارية العالمية ومطاعم المأكولات السريعة. وهذا التفشي السريع لم يحدث تدريجيًا وإنما كانفجار حوّل صورة المدينة من مدينة صناعية ومنطقة اقتصادية إلى منطقة نزهات سريعة تجذب سكان باقي المحافظات المجاورة؛ حيث أن القدرة الشرائية لسكان المدينة وحدهم غير كافية لتسيير تلك المصالح.

سارعت تلك العملية في «النسيان الثقافي»؛ إذا تحولت أسماء الشوارع إلى لافتات مضيئة باهرة عليها صور لأشهى المأكولات أو أجمل الملابس المستوردة في تحفيز مستمر لعملية الشراء، وربما تغير المزاج العام من المقاهي إلى الكافتيريات المتألقة على مناطق مميزة على الشاطئ. من هنا تبدأ عمليات التشيؤ المستمرة للطابع السكاني للمدينة، فمع زوال الحدث الفعلي من الحق في المدينة إلى التمتع بخدمات المدينة السريعة، أصبحت السردية عن الاستقلال والمقاومة الشعبية ذاتها سردية مختزلة في معاني البطولة الباهرة لاستقطاب السائحين من داخل مصر أو ربطها برموز احتفالية تختزل قيمة سردية المقاومة لأجل مدينة شعبية في صورة العرض المسرحي السريع أو الأغاني أو الرقص أو الاحتفال في أحد الشوارع الشعبية بحرق تماثيل من القش للمستعمر الإنجليزي.

> كثيرًا ما نجد أنفسنا مدفوعين للحديث عن المصادقات المتعددة والمجهولة باعتبارها تفاعلات تميز المناخ السائد في الحياة بالمدن الكبيرة، ولكننا ربما تجنبنا حذف أماكن معينة تختفي في نطاق الحديث، تأتي بمثابة الغلاف المؤطر للحياة، وعلى سبيل المثال، الحذف لمحطات السكك الحديدية حيث تجري مواجهات متعددة وكثيفة وغير معلومة الاسم. ومرة أخرى قد نتحدث عن العمارة الحديثة كوعاء عمراني يحوي البلوكات والمكاتب والمتاجر ومراكز التجمع، ولكن علينا أن نتأمل الطريقة التي أدى بها ذلك إلى غياب العلاقة مع البيئة المحيطة[9].

يتماس هذا تعليق تمامًا مع ما يحدث في شاطئ بورسعيد؛ إذا اختفي الفراغ العام الذي كان مصدر مشاعية الشاطئ. فهو لم يكن معرفًا في ذهن سكان المدينة فقط بالنزهة والتي تحولت من التمشية البطيئة على شاطئ ممتد واسع إلى حيرة في اختيار الكافيتيريا الأكثر تألقًا وتستحوذ على الرقعة الأقرب للمياه. فشاطئ بورسعيد ليس فقط مركز النزهة إنما منطقة الصيد الشعبية ومازال حتى الآن الشاطئ هو موقع الصيادين أصحاب «الفلوكات" الذين يعملون على صيد الأسماك في نطاق قريب من الشاطئ. ولكن بيننا وبينهم الآن ساتر من الكافتيريات ذات الطابقين وربما بعض الحواجز الإسمنتية والمعدنية تفصلنا عن المشهد الشائع للمدينة المتمثل في عملية الصيد. وحسب تقرير مركز الإنسان والمدينة، تشكل المناطق الحاجبة للرؤية على شاطئ بورسعيد نسبة 43.90% من إجمالي مساحة الشاطئ وإن كنا أدق فهي المناطق الأقرب للتنزه والأقرب للسكان[10].

8- بول كورنتين، ترجمة علي فرغلي، **كيف يغزو النسيان ذاكرة الحداثة**، ص 65، المركز القومي للترجمة، 2009

9- المصدر السابق، ص 58.

10- الإنسان والمدينة للأبحاث الإنسانية والاجتماعية، «تقرير مسح شواطئ أربع مدن ساحلية شمالية»، 2024. متاح على: https//:tinyurl.com/h75j6j8r

ويغيب عن الذاكرة علاقة السكة الحديد بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية للمدينة. فقديمًا كانت السكة الحديد هي مصدر نقل البضائع ولكن الأهم أنها الوسيلة الأكثر شعبية لنقل العمالة المهاجرة إلى بورسعيد من صعيد مصر تحديدًا. ولنكون أوضح فالقطار هو وسيلة نقل الجنود وعساكر الأمن المركزي المتمركزين في بورسعيد، وكذلك عمال المقاولات التي تحتاج إليهم المشروعات الجديدة في المدينة، وأيضًا الباعة الجائلين في سوق الحميدي والتجاري وهم الأفراد الأشهر في السوق، حيث يحملون الملابس على أكتافهم ويجولون شوارع المدينة بحثًا عن الوافدين للمدينة في أيام الخميس والجمعة من المحافظات المجاورة لشراء الملابس. ولهؤلاء الباعة الجائلين تحديدًا رمزية كبيرة في السوق فهم أصحاب الحكايات والمشورة لتجار الجملة في البضائع الأكثر استهلاكًا. لكن تغيب عن الذهن هذه العلاقات وهذه الروح التجارية المبنية على العلاقات والحديث المتبادل في مقابل ظهور الصورة السلعية الجديدة للمدينة المتمثلة في المحلات الكبرى والبراندات الجديدة وأماكن التنزه المزينة بالإضاءات.

تختفي المدينة تحت الأضواء، في البداية أضواء سوقي الحميدي والتجاري، وأصوات موسيقى المهرجانات مساءًا والقرآن صباحًا. ولكن بعد الساعة 2 صباحًا تطفئ كل الأضواء وتغلق المحلات أبوابها لتظهر منطقة أخرى كان يخفيها شدة الضوء، وهي البيوت الخشبية التي تميز حي العرب، وتصعد أصوات الضحكات والحكايات على القهاوي البلدي في الحارات الضيقة. والضوء الجديد لم يعد ينحصر في سوق واحد أو اثنين، إنما تشهد المدينة مرحلة جديدة من الأضواء تجاوزت السوق الشعبي لتصل إلى بناء مولات تجارية كبرى متراصة تشغل حيزًا كبيرًا على أنها تجمع تجاري جديد ينافس السوق الشعبي الشهير مثل مول البالة وسوق السمك. غيرت تلك المجمعات التجارية الجديدة حركة الوافدين للمدينة، فأصبح هنالك شوارع جديدة يقتحمها المستهلكين إذ أصبحت بعض المناطق المنبوذة من ذهننا مكانًا أكثر حضورًا في خارطة المدينة. لكن تزين تلك المولات الجديدة الشارع الذي شهد أكثر الأحداث دموية في المدينة، وهو الشارع خلف السجن في مقابل مقهى بصلة وسوق السمك القديم، حيث قُتل المتظاهرين عمدًا. وتختفي سردية الجريمة التي أودت بحياة 67 شخص تحت أضواء الأسواق والسائحين.

أصبحت مسألة الذاكرة في القرن الحادي والعشرين تحديًا جماعيًا للتعبير عن الذات الجماعية لمكانٍ ما. وهنا في بورسعيد لدينا عدد منها غير متصلة وغير متسقة؛ غير متصلة من حيث أنها لا تعود إلى أصولها كذاكرة العمال المخطوفين من أراضيهم للعمل القسري من أجل مشروع فرضه الأجنبي على الواقع المصري، وغير متسقة إذ أنها تحتفي بالاستقلال والمقاومة لكن تتباهى وتروج لنفسها بالعمران الأفرنجي. تتسق أحيانًا حينما تنمي خطابها المقاوم وتعترف بمكوناتها المتشعبة من كل ربوع مصر ومسارها الطويل في المقاومة. وتفقد ذلك الاتساق عندما تصبح المقاومة مجرد قصة تنضم لأخوتها من قصص الفلكلور بلا معالم حقيقة عن واقع هذه المقاومة.

تفتقد بورسعيد للتأريخ الشعبي للمدينة، وكذلك تفتقر ذاكرتها لجوهر مادي ملموس من ممارسات هذه الذاكرة أو يمكن القول إنه سُلب منها. فسكان المدينة المدركين لواقع أن بيوتهم قابلة للإزالة في وقت ما لا أحد يعلمه سوى إدارة المدينة لا ترتبط معرفتهم تلك بطبيعة ذاكرة المكان، وهي حركات مستمرة من الانتقال والترحيل من موقع إلى موقع. بالطبع، المدينة صغيرة الحجم وتحتاج

إلى تنمية مستمرة ومشروعات إنشاء مدروسة يمكنها الحفاظ على طابعها السكاني والحركة العمالية والتجارية الداخلة والخارجة منها. لكن المدينة فقدت طابع الذاكرة المتصلة منذ مدة طويلة واعتمدت بشكل كلي على التأريخ المُسيس من الدولة أو مثقفيها. ومهدت الإدارات الجديدة للمدينة بيئة حاضنة للجانب الدعائي الذي يصورها مدينة المحلات التجارية وتجارة الملابس والاستخلاص الجمركي.

حينما نتابع تسلسل ذكريات الأجيال نجدها غير متصلة من حيث المكان والزمان. المدينة سريعة التغير بالفعل، وسرعة التغير تلك من سماتها. فهل كل نظام إداري جديدة أو قطاع خدمي يمكن تطبيقه هنا أسرع من باقي مدن مصر؟ تلك السرعة في التطوير هي سرعة قرارات إدارية لا سلطة شعبية بها، وبالتالي تؤدي تلك التغيرات السريعة إلى تحييد وعزل الرؤية التاريخية الشعبية للمدينة أو الحفاظ على ذاكرة أصيلة للمدينة. نلاحظ ذلك في تعريف السكان للمدينة أو سؤالهم عن نمط الحياة المتخيل في بورسعيد. فالمدينة في تعريفهم يبدأ تاريخها من المقاومة في 1956 وأنهم أحفاد أبطالها، ثم مرحلة من نسيان معاناة التهجير بسبب الحرب من 1969 وحتى 1973 وما بعدها من العودة التدريجية إلى بورسعيد. أصبح للمدينة صورة واحدة من صور الذاكرة مرتبطة بمشهد وطني حافل، ولكن ذلك المشهد متقلص ومنكمش على ذاته، فهو لا يفسر معنى مقاومة الأهالي ولا طبيعة المقاومين التي هي تراكم لطبيعة العمالة المهاجرة للمدينة. وتستمر المدينة في التطور ليصبح وسط المدينة الذي كان مركز الحياة المتميزة للأجانب هو مركز الحياة الاقتصادية للشركات الكبرى والبنوك، فيما رحل السكان إلى حي جديد بني بمعايير مختلفة منعت عن السكان ترف وازدهار المدينة التي اعتادوها أو سمعوا عنها بل وربما منعهم من التنعم بالبحر نفسه.

وخلاصة القول إن الذاكرة هي نتاج نمط العيش المتقطع من المقاومة لكن دون التنعم بالمدينة؛ إذا أصبحت المدينة التي سمعنا عنها أو نروي عنها هي تلك المدينة التي نراها في الزيارات. فحينما يتكلم الناس عن طبيعة شوارع المدينة التي تطل على البحر من كل جانب يقصدون فقط شوارع حي الافرنج، فتلك ليست شوارع حي الزهور الضيقة والملاصقة للبيوت. وحينما يتكلمون عن المقاومة الشعبية فهم يتكلمون عن تجمهر من الأهالي في أحد حواري حي العرب يخططون ليشنوا هجومًا ما في الخفاء. لكن هنالك تلك الشذرات التي لا تموت، فحينما نشير إلى بيوت الجولف، وهي مجموعة من الأبراج السكنية في حدود 12 طابقًا، نسميها المعسكر القديم لأنها كانت موقعًا لمعسكر الانجليز، ولكن تخفت الذاكرة بعد ذلك. وربما تخفت تمامًا لينتج لنا ذاكرة أخرى مؤقتة لا تتصل بماضيها ولا بطابعها الشعبي، إنما بصعوبة الحياة ومشاكل الإسكان، وهي الأزمات المتكررة التي يعيشها أغلب مواطني مصر على العموم. وبالنظر إلى ذلك، ربما يؤدي هذا الخفوت ونسيان تلك الشذرات إلى تحويل الذاكرة إلى مشاهد نراها فقط في السينما أو الكتب لا تحمل طابعًا شعبيًا يحفظ للمكان أثره المقاوم وسرديته المقاومة وبنيانه التعددي المبني على العمالة المهاجرة لتصبح مركزًا اقتصاديًا فقط، فلا أحد يملك ذاكرة هذا المكان وإنما هي شذرات تخفت ليحل محلها شذرات أخرى مؤقتة جدًا ومغلفة بطباع مرحلية أو سياسية.

الإنسان والمدينة للأبحاث

الإنسانية والاجتماعية

www.hcsr-eg.org
info@hcsr-eg.org